عيني عينك

قصص قصيرة

نادية كيلاني

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كيلاني، نادية.

عيني عينك : قصص قصيرة / نادية كيلاني .-

(د.م. : د.ن.)، ٢٠١٦ (الجيزة: دار الفضالي للطباعة)

١٢٠ ص: ٢٠سم

١-القصص العربية القصيرة

أ – العنوان

٨١٣,٠١

رقم الإيداع: ٩٠١٥ / ٢٠١٦

تصميم الغلاف : محمد عبد الباقي

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إهـــــــداء

إلى كل من يقرأ حرفي

ويرى فيه شيئًا يستحق

نادية كيلاني

"رضا الناس غاية لاتدرك،

ورضا الله غاية لا تترك،

فاترك ما لا يدرك، وأدرك ما لا يترك"

من كلام الشافعي

زهرة الصبر لمن

هـي:

ظل طائرُ الفشل ينقر في جدار عشِّ زيجتي المنكوبة، حتى استخرج منه القذيفة الأخيرة التي انطلقت في وجهي منذ دقائق:

"أنتِ طالق".

لم أفاجأ بالكلمة كما حدث أول مرة، وكانت أخفَّ قليلاً في المرة الثانية، أما هذه المرة فربما لأنني كنت أتوقعها أوأنتظرها، فلم يرتجف جفناي ولم تصدر عني شهقة.

ربما أكون قد تبسمت، لا أذكر، كما لا أذكر كم مرَّةً كرَّرت هذا السؤال على نفسي: "كيف وأنا الأديبة الشاعرة الرقيقة المهذَّبة بشهادة الجميع أتحمَّل هذا الذي خرج لتوِّه من إهاب الزوج ليدخل في إهاب طليقي.

أتذكر نفسي حين قلت لزميلة الدراسة: عندما أتزوج سأكون موفَّقة في حياتي، فلي قدرة أن أتكيَّف مع أي شخص بأي طباعٍ، أعرف متى أتكلم ومتى أصمت ومتى أشد ومتى أرخي، ولكن ماذا عساي فاعلة مع زوج لا يقدر على ضبط زوايا عينيه!!

فتأخذ كل أشكالها الحادة والمنفرجة، وراء البيضاء والسمراء والتركوازية، الرائحة منهن والغادية.

رقة مشاعره تضطره لأن يستقبل دموع الهيفاء بحِضنه، وكرمه الزائد يضطره لأن يناول الشقراء حافظته، وإنسانيته المفرطة تجبره لأن يسكب للسمراء من حبره فوق بياض أوراقها ويزينها باسمها، وتتمة للجود يقدِّمها بنفسه لوسائل الإعلام، والنقَّاد.

المهم أن كلهنّ يجدن في قلبه متَّكأً يستندن عليه حتى ينعسنَ.

وهو يفعل ما يفعل في وجودي بدم بارد، ولمَّا قلت له بهدوء:

– إن هذا يجرح كرامتي.

قال بالهدوء نفسه:

وكيف أغضُّ طرفي أهو أعمى= وكيف أرد قلبي أهو صلبُ

الأبيات لشاعر زمانه "صالح جودت" وكونه يستشهد بكلمات شاعر غيره ليس اعتباطًا؛ ولكن ليفهمَني أنها سنَّة متَّبعة من القديم، لم يبتكرْها هو.

ولأنها توافق هواه يرددها ويغنِّيها ولكل بيت فيها مناسبة عنده، فحين يغازلني يمنُّ عليَّ بباقي الأبيات:

تخذتك دونهن هوى مقيمًا = له بيت وناصية ودربُ

وبعتُك عشرتي ووهبتك اسمي = ولي مهما ارتحلت إليك أوبُ

وأما الأخريات فهن كأسي = من الإلهام أشربها وحسبُ

كم هو كريم أن وهبني اسمه، وكم هو يحتاج لشرب كؤوس الإلهام من شفاه الفتيات والسيدات! وأنا كشاعرة مثله أستجلب كؤوس الإلهام من الخيال وحسب!

أطلق قذيفة الطلاق الأولى عندما قلت قصيدة في محفل، وأُعجِب بها النقّاد وأشادوا بقدرتي على التسامي بالمعاني مما يسمو بالروح، وأن قصيدتي أشعر من قصيدته التي تعتمد على الوصف الحسيِّ واستخدام ألفاظ عفا عليها الزمن.

ورغم أنني تجاهلت الأمر تمامًا؛ خوفًا من توتُّره وهو يقود السيارة، فإنه ظل يكرِّر كلام النقاد مع وصفهم بالغباء وعدم القدرة على التمييز، وأثاره إلى حدِّ الهوس أنني صامتة، فطلب مني الكلام، فقلت متحفظة:

- لا تلتفت لرأي النقاد، لك الحرية في تناول الموضوعات.

فإذا به يثور أكثر ويقول:

- تسخرين مني، تظنين نفسك شاعرة حقا، أنت لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.. "أنت طالق".

ثم استدار فورًا بالسيارة حتى رمى بي أمام باب البيت عند أهلي، وانطلق عائدا..

قبل مولد اليوم الجديد جاء يبكي ويعتذر، ولم أدعه يستجدِ كثيرًا، سامحته، وعدت معه.

القذيفة الثانية كانت من أعجب ما يكون.. شاهدته يغازل امرأة وهى لا تستجيب وهو لا يكفُّ، ربما تكون متحرجة من وجودي، همست في أذنه: سأغادر الحفل حالاً حتى تأخذ راحتك.

تحيَّر كيف يتصرف ثم قرر أن يمشي معي، وظل صامتًا طوال الطريق خوفًا من أن يكرِّر ما حدث من قبلُ، وفور أن دخلنا من باب الشقة اندفع فيَّ:

– تتفنَّنين في عكنتي، ما معنى أن تمشي وتتركينني، ولماذا أتيتِ معي إذًا.؟!

"يا الله! هل أذكِّره أنه هو الذي ألحَّ عليَّ كي أذهب معه!! هل أذكره أنني اشترطت عليه احترام وجودي أو يذهب وحده!! ورغم أنني لم أذكره ولم أوبِّخه، ثار واندفع أكثر:

– نظراتك لا تريحني كأنك تقولين: مجنون ألح عليَّ بالحضور ثم يقول: لماذا أتيتِ؟!

" الحمد لله أنه يدرك وحده؛ ولكن متى يصمت؟ لا أحد يعلم.. ظلَّ يعدِّد محاسنه وقدراتِه، ويقول: أنا.. وأنا.. ولما تحوَّل ضمير الأنا إلى أنتِ ظل يعدِّد مساوئي، حتى صدّق نفسه، واكتشف أنه كثير عليَّ فقال:

"أنت طالق".

لما تفوَّه بالكلمة وضع يده على فمه من المفاجأة؛ ولكن هيهات لقد انطلقت وسجِّلت كما انطلقت منذ دقائق قذيفته الثالثة.

وفعل نفس الشيء.. ظل يعتذر ويوبِّخ نفسه وأنا صامتة لا أكترث، ثم نهضتُ وأخذتُ أستعدُّ لحفل الليلة، وأنا ألقي عليه أوامري:

– في الحفل لا علاقة لك بي تذكَّر أنك طليقي لا زوجي، لا تنس غدًا أن تُتمَّ إجراءاتِ الطلاق.. فيها سجن لو تأخَّرت.

ركع على ركبتيه يرجوني أن نظل زوجين أمام الناس، ونذهب إلى الحفل معًا.. وافقت.. هل أضيع على نفسي حفل اليوم المميز، وأجلس لأندب حظي؟!

قررت أن أنتقي من حفل الليلة زوج المستقبل، وعلى مرأى منه لأكيل له الصاع صاعين.

فهذا الذي يرشقني بنظراته على حذر منذ زمن ولسان حاله يقول: هو لا يستحقك، كان أول من تبسّمت له فاندهش وأخذ يتلفت يمينا ويسارا، فلما تأكد أنه المقصود أرسل ابتسامة صغيرة خجلة مع إيماءة من رأسه فانتقلت إلى جواره.

دار الحديث هسيسًا بيننا، ولما وجدته متحرجا أخبرته أنني بائنة من زوجي منذ ساعة فقط.

رفع تصريحي هذا عنه الحذر كما رفع درجة حرارته، وأخذ يبثُّني أشواقه ويعترف بمشاعره من أول يوم رآني.. ووجدت فيه لطفا ومرحا وذكاء، حتى قال:

- كلما رأيتك في حفل كنت أسميك بيني وبين نفسي سيدة الحفل الأولى، قلت له:

- وأنت اليوم فتى الحفل الأول.

هـو:

كيف تتصرف هذه المرأة بهذه الحماقة مع هذا الرجل، وهكذا أمـام الناس وفي وجودي، صحيح أنني سقيتها من ذات الكأس مرارا لكننـي رجل، وصحيح أنها ليست زوجتي الآن لكن الناس لا تعلم ذلك.!!

ثم إن هذا الطلاق لا يقع لأنني لم أكن في وعيي، غدا سـأذهب إلـى المفتي وأقول له:

لم أكن في وعيي أنا كثير الحلف بالطلاق وهذا لا يوقعه.

ما لي لا أجد في نفسي القدرة على النظر إلى غيرها، لم أجد في الحفل أجمل منها، ولا أرشق.

هكذا تضحكين أمامي بصوتٍ عالٍ ومنطلق لا أثر فيه لحـزن.. هـل كنت تتمنّين الطلاق، وهكذا تهامسين هذا الشويعر الـ .....

أكيد تفعل ذلك لتستفزني وليس من حقي أن أوقفها، وإلا أعلنـت أمـام الجميع خبر طلاقنا، وأنها في الحفل بصفتها الشخصية كمـا هـددتني.

يجب أن أنسى أمرها الآن وأفكر فيما يجب فعله بعد الحفـل، ومـاذا سيكون مصيري بدونها؟ هل أكتشف الآن أنه لا عـيش لـي بـدونها، وأنها نعم الزوجة والحبيبة؟

تتجسد أمامي أخطائي كما تتجسد أمامي امرأة مثيـرة وجذابـة، مـا يدهشني أنها لم تفقد أعصابها وتنطلق مازحة مع الجميع، كما أنها لـم تفقد وقارها أيضا.. هل اكتفت بهذا الشاب تسلية؟!!

ماذا يقول لها في أذنها فتضحك؟ وماذا قالت له؟ حتى يتجرأ هكذا فلا يعيرني اهتمامًا.

نسي هذا الصعلوق أنني زوجها، وأنني شاعر كبير يشار له، لابد أنها تشجعه عليَّ، ربما أخبرته بالخبر المؤسف فانتهزها فرصة، فنحن الرجال لا نضيع الفرص، أنا أيضا الفرص أمامي، وها هن الجميلات يتمنين التحدث معي، ولكنني عازف عنهن، تشغلني تعاستي القادمة.

لا أتخيل نفسي افتقدتها وسأعمل كل حيلة لاسترجاعها، ولا حل سوى القول بأنني لم أكن في وعيي.

آه يا حبي الوحيد! لو تدرين كم أحبك! وسبب حماقتي غرور تملَّكني بأنني ضامنك ومهما فعلتُ فلن أفقدك.. لا يجب أن تحاسبيني على حماقتي وتهوُّري.

أعدك من الآن ستتغيَّر سلوكياتي، وسأعمل على رضاك، وها أنت ترين جلوسي منزويا أشيح بيدي لأي فراشة تقترب، وعيناي مثبَّتتان عليك، والنار تأكل قلبي لتهامُسك وهذا الشاب.

تأكَّدي أنني سأتغير، سترين رجلا آخر، زوجا وحبيبا وحدَبًا وصوبًا، سيعجبك الرجل الجديد الذى سأكونه، سترفلين في السعادة التي أصنعها لك خصيصا، ستكونين ملكة متوَّجة وسيعلم الجميع كم أحبك وأحترمك وأعلي من قدرك حيث وُجدنا.. أما الآن يا نور العين فلا حيلة لي سوى أن أتركك تتعمين بوقتك وأتحرق بشوقي.

حبيبتي، يقترب الحفل من موعد الانتهاء وقد أبدعتِ كعادتك بقصيدتك، وملكتِ القلوب كعادتك، أنتِ حقًّا شاعرة جيدة.

أنا أيضًا اليوم كنتُ موفَّقًا لأنني ألقيت القصيدة التي كتبتها يومًا من أجلك، وألقيتها اليوم من أجلك أيضًا، أكيد فرحتِ بسماعها موسومة بمشاعري الفيَّاضة نحوك رغم تظاهرك بالا مبالاة.

الكل هنا يعلم أن القصيدة لك؛ كتبتها أيام الخِطبة، والكل كان مبهورا بالقصيدة حتى أنت.. أتمنى أن تفوز قصيدتي بزهرة الحب لكي أهديك إياها وأثبت لك وللجميع كم أحبك، فتساعدني زهرة الحب على استردادك مرة أخرى.

يا الله لقد فازت قصيدتي بالفعل!! وقف منسق الحفل يعلن فوز القصيدة: أستاذنا الفاضل لمن تهدي هذه الزهرة.؟

إنها فرصتي يا حبيبتي لأصالحك:

أهديها لحبيبة عمري الماضي والمستقبل، أهدي زهرة الحب لزهرة أيامي التي لا أستغني عنها أبدا، والتي قدْرُها عندي يفوق ما أظهره لها من مشاعر.. تفضَّلي حبيبتي تسلَّمي الزهرة.

كأنها البدر مقبلا، بنعومة الحرير أخذت من يدي الزهرة، وشكرتني بإيماءة صغيرة متكلفة.. ثم أمسكت بالميكرفون لتعلن:

- وأنا بدوري أهدي الزهرة لفتى الحفل الأول.

(مجلة القصة- ديسمبر- ٢٠١٠)

(الثقافة الجديدة وحواء- يوليو ٢٠١٤)

- هو السبب في خروج النساء ومزاحمة الرجال في كل مكان.

اندفعت بحرقة المطحونة من هذا الخروج:

- معك حق..الله يلعنك يا قاسم أمين؛ لقد جعل الرجال يتمطعون على حساب النساء، ينامون في البيوت، ويتمنون لو يُرضعون هم الأطفال!!

شعر السماوي بمدى غيظي، وأنني لن أحقق بغيته في جدل يرضيه، فلن أنبري للدفاع عن عمل المرأة، وتحقيق ذاتها كما يريد، فيجدها فرصة لإظهار المساوئ التي نتجت عن ذلك، من زحام في المواصلات، وضياع للأولاد، وانتشار للبطالة، وفوق هذا كله استرجال المرأة وشعورها بالاستغناء عن الرجل، مما كان السبب في فشل كثير من الزيجات وزيادة نسبة الطلاق و.. و..

ولما كان ردِّي مخيِّبًا لظنه وأنني بدأت بالهجوم علي جنس الرجال، وفي سبيلي لإظهار عيوبهم التي اكتسبوها من اعتمادهم على المرأة، ابتداء من راتبها، ومتابعتها للأولاد في المدارس، والمذاكرة لهم، إلي التفكير في كسوتهم، وإطعامهم، وكيف أن الرجل استمرأ الراحة ما دام هناك من تقوم بالدورين.

قرأ الزميل ما يدور في رأسي من تنمُّر عيني فآثر الابتعاد وهو يردِّد:

- يا ستِّير يا رب إنها على آخرها.

غداء فاخر جدا

ألقيتُ بحقيبتي فوق المكتب.. ارتميتُ على المقعد وأنا أنفخ:

"ما العمل يا ربي مع هذه الميزانية الشاطحة.. ليتها ميزانية بلد، لكنها ميزانية أسرة في غاية التواضع والرضا؟!".

أمضيت وقتي في العمل أحسب بالورقة والقلم، أجمع، وأطرح، وأضرب.. والعملية لا تنضبط على الإطلاق.

أرسل المدير في طلبي عدة مرات يستعجل الأوراق المتأخِرة، والتي تسبِّب انشغال مخِّي في عدم إنجازها.. اعتذرت له وطلبت منه مهلة إلى الغد.. لم يتضايق فهو يعلم اجتهادي وحرصي على العمل، لكن الزميل السماوي الذي يكره عمل المرأة ويراها خادمة في بيتها أو بيت غيرها ليس إلا، أطلق سُمَّه في عبارته الأثيرة ويتلذذ بترديدها:

– الله يلعنك يا قاسم أمين.

سمعت سخطه علي الرجل كثيرا ولم أردَّ غيبته.. أعلم نيَّة الزميل السماوي، ودائما أفوِّت عليه الفرصة، فهو يريد أن يدخلني في جدل عقيم يثبت فيه وجهة نظره الصائبة في عدم جدوى عمل المرأة، وأنها لا تفلح في أي شيء إلا في بيتها و.. و..

هذه المرة لم أطق صبرا.. سألته في استنكار:

– لماذا تدعو على الرجل؟!

انتشى كمن حقق سبقا.. وقال:

حسناً فعل.. عدت إلى حساباتي التي تجلب لي الصداع.. فمنذ أن قيدت أكثر راتبي في الإجراء الاجتماعي الذي يسمى الجمعيات الشهرية، ذلك المشروع الذي يحرمك من الشيكولاتة والأيس كريم، وحتى عصير القصب واللبِّ، وكل ما هو زائد عن الضروري في مقابل أن تقتطع جزءًا من راتبك شهريًّا.. فإذا جاء دورك وتسلمت مبلغا لا بأس به قد يتيح لك تحقيق هدف معيَّن، فأنت به على موعد لشراء سلعة معمرة، أو تجديد فرش، وهذا في الحالات العادية، لكن هناك حالات أكثر رخاء ورفاهية وهي أن تجعل حصولك علي هذا المال للإجازة الصيفية لكي تمضي إجازة سعيدة مع أسرتك.

ولما كنت من فريق المطحونين في الأرض فموعدي دائما مع بداية عام دراسي؛ لدفع مصاريف المدارس، والمعاهد، وشراء لوازمهما؛ لذلك فأنا مرتبطة طوال الوقت بهذا النظام الاجتماعي بدون تخلف.

مشروعي يحتاج إلى أموال متدفقة ومتلاحقة، وهو تعليم الأولاد، وهو أيضا مشروع لا ربح له.. استهلاكي من الدرجة الأولى.

وبالنسبة لي فإن ما ينفق من مال على تعليم الأولاد، هو إنفاق بلا طائل؛ لأنهم غير مجتهدين في دراستهم؛ مما يجعلهم لا يكتفون بالاستهلاك المادي فقط، بل باستهلاك الأعصاب أيضا.. أعصابي أنا على وجه الخصوص، فهو استهلاك تام لآخر مليم، وآخر قطرة من دمائي النقية وتحويلها كلها إلى دماء عكرة.

أصبِّر نفسي بأنني أفعل ما يمليه عليَّ ضميري وواجبي معذرة لله عند السؤال.

دقَّقت النظر في الورقة في محاولة عقيمة لتجنُّب هذا الفلَس الذي ظهرت آثاره جلية هذه الأيام، وأثَّر على مستوى التغذية، والخدمة والنظافة في البيت، وكذلك ألغى بند الترفيه بالكامل، فمنذ أن خلا جيبي من المال اكتشفت أن راتب رب أسرتي لا حول له ولا قوة وحده.

تنهدت.. منذ متى لم أتوقف عند هذه الحقيقة وهي أن دخلي هو الذي يقوم بكل العبء؟!

كانت الأيام تمر بسلام.. الذي معه يدفع ولا فرق.. والأولاد تكبر جسديًا أسرع من أي شيء آخر مما أسرع بظهور الفجوة، فنموُّ أجسادهم مع التعثر في الدراسة يضاعف المصروفات، ويضاعف الجهد ويضاعف أيضا القلق.

اكتشفت الآن أن سلسلة المضاعفات تقع علي عاتقي وحدي، ووحدي من يفكر دائما في سد العجز بالجمعيات، أو بالاقتراض، وشريكي في الأولاد لا يرهق نفسه لا بالبحث ولا بالتفكير.. والآن ماذا أفعل، بلغ السيل الزبى؟!

لقد تأخرت عن تسديد المصروفات الدراسية.. وتأخرت عن دفع ثمن فاتورة الكهرباء.. يأتي المحصل مرة وراء مرة مهددا بقطع التيار.

وتعوُّد الأولاد على طلب ما يحتاجونه مني مما زادني ضغطا على أعصابي، وزاده راحة.

في السابق كنت أستجيب علي الفور، إذ كانت النقود متوفرة، والقدرة علي التصرف وتدبير أموري مستطاع.. أما الآن فليس أمامي غير شريك العمر:

- يدك معنا يا رجل.

والرجل الذي يردد طوال الوقت أن الحياة تعاون، واليد الواحدة لا تصفِّق، يطلق اليوم شعارا جديدا:

- لا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها.. هذا راتبي، ولا أخفي عنكم شيئا.

أحيانا يستطرد:

- قلت لك مائة مرة: أنت تنفخين في قربة مقطوعة.. الذي لا يفلح في التعليم يذهب بعيدا عنا ويتعلم صنعة.. تعيدين له سنة وراء سنة ولا فائدة، أريحي نفسك.

منطقه اللا مبالي بالتعليم.. يزيد أعصابي التهابًا، وعجزي عن تلبية ضروريات أولادي المتمثِّل في تغذيتهم التغذية السليمة يربك تفكيري.. لكنه والحق يقال أصبح لا يدقق فيما يقدم له من طعام.. يأكل صامتا راضيا حامدا ربه حتى لا يثيرني أو يجعل الأولاد يتمردون، خاصة وهو يراهم يتأففون في صمت ويتبادلون التعليقات في همس:

يقول الولد:

- إلى متى يظل هذا الحال؟!

يرد أبوه:

- اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال.

- أما زلت تحسبين؟!

ارتعدت كل مفاصلي وخرجت من تفكيري على صوت الزميل السماوي الذي يتابعني بشماتة.. أكمل استخفافه:

- دقّت ساعة الانصراف يا مدام كما وضعها قاسم أمين بالتمام.

تصنعت الابتسام.. فقال:

- مزاحك اليوم مميت!!

في الشارع غلب علي تفكيري.. ماذا يأكل الأولاد اليوم.. لابد أن يتغذى هؤلاء الشباب حتى لا يؤثّر على صحتهم في المستقبل.. قررت أن أبيع السوار الوحيد الذي تبقى من مصاغي؛ لأمتّعهم بثمنه لعدة أيام حتى يفرجها الله من حيث لا نحتسب.

كنت أصبّر نفسي بهذا القول وأنا أتنقل من صائغ إلى آخر، رافضة ما يعرضونه عليَّ من سعر، فإن كان ولابد من فقدي لهذا السوار الغالي علي- ذكرى المرحومة أمي- فلن أقبل بمحاولات الابتزاز وأبيعه بالبخس.

قلت لأحدهم:

- إما أنك لص أو لا تعرف قيمة هذا السوار؟

تبسَّم الرجل في خبث.. وقال:

- أنت تعرفين قيمته المعنوية وأنا أعرف قيمته المادية.. ولا قيمة لشيء يباع.

انتزعته من يده غاضبة، واندفعت خارجة من المحل.. زكمت أنفي رائحة الكباب المنبعثة من المحل المقابل.. تسمَّرت في مكاني مترددة:

- هل أرجع للصائغ وأقبل بالسعر أو أواصل السعي حتى أحصل على سعر أعلى؟!!

كانت عيناي تدوران في محل الكباب تبحثان عن قائمة الأسعار، فإذا بهما تستقران على شخص يتناول غداءه في تنعُّم وتلذذ، زاد اتساع عينيَّ.. لم أصدقهما.. أهذا هو؟

لكنهما تؤكدان لي.. نعم هو.. شريك الحياة.. أبو الأولاد!!

مشت قدماي حيث قادتهما العينان.. وقفت أغالب دهشتي.. أتفحَّص ما أمامه من صنوف الطعام، وأغلاها.

رفع رأسه فسقطت الشوكة والسكين من يديه.. همَّ بالكلام فلم يخرج صوته، همَّ بالوقوف فربَّتُ علي كتفه.. أن يلزم مكانه.. ثم ناديت:

- جرسون.

أتي العامل مسرعا.

- تحت أمرك يا سيدتي.

- بعدما ينتهي البيه من غدائه جهِّز له وجبة مماثلة تماما بعدد الأولاد.

ثم ربتُ علي كتفه.. قائلة:

- ليتها تصل ساخنة.

**

(مجلة حواء -٩ يوليو ٢٠٠٥)

(موقع القصة العربية- ١٤ يونيو٢٠٠٧)

المتشرد

قم يا ولد يا بن الـــ .....

وركله بمقدمة حذائه.. كان الولد يرقد علـــى ظهـــره مظلِّـــلاً عينيـــه بذراعه..

رفع ذراعه ونظر إلى صاحب الركلة الذي أشار بيده كي ينهض مـــن فوق عتبة المحلِّ حتى يفتحه.

قام الولد بتكاسل شديد يسلخ جسدًا مهدودًا من الأرض.

رفع الكرتونة التي كان يستلقي عليها.. دسَّها تحت إبطه ومشى يجـــرُّ ساقيه خلفه.

جسده ثقيل ككيس من الجير حُمِّل على ساقين كفرعينِ من شجر جافٍّ، عند نهاية الرصيف فرش الكرتونة وحط فوقها كـــيس الجيـــر.. شـــد حافتي قميصه الممزَّق يداري بهما صدره الصدئ.

عبث بأصابعَ معروقة في مزْق بنطلونه المدهون بالشحم، فجأة رفع يديه الاثنتين إلى رأسه يهرشها بعنف وضيق حتى جرح فروتها.

مسح الدم العالق بين أظفاره في قميصه.. تثاءب.. عاد وهرش رأســـه وركبته، وظهره، وأذنه، وأنفه و.....

قام ينفض ملابسه، ويرتِّبها فوق جسده النحيل، ثم عاد وقعد في مكانه مسترخيًا واضعًا ساقًا على ساق.

دون أن يمدَّ يده ألقى أحدهم إليه بقطعة نقود.. تفحَّصها جيِّـدًا دون أن تلمع عيناه فرحا.

قام رافعًا الكرتونة ومشى خطوات بطيئة إلى عربة الفول المـدمس ناولها للرجل، ناوله نصف رغيف محشوًّا فولاً بالزيت الحار، عاد بـ "الساندويتش" إلى مكانه.. افترش الكرتونة وجلس يلتهم إفطاره بشهية، ثم أعطى ظهره للطريق ونام.

لما التفَّت الشمسُ ناحيته وبعثت بأشعتها إلى قفاه وظهـره وسـاقيه، استحلى دفئها فاستدار لها لتغمر وجهه وصدره وبطنه، ولمـا تحـول الدفء إلى لسعات محرقة قام ساحبًا فراشه تحت إبطـه وراح يجـر فرعيه الجافين.

المحلات تفتح أجفانها واحدة بعـد الأخـرى.. تبـرق "فترياناتهـا" بملابس الرجال والنساء.. ملابس داخلية وخارجية، ملابـس للسـهرة وأخرى للصباح، وهو يمشي من أمامها ولا يبالي.

فإلي أين سيذهب بتلك الملابس؛ مجتمعاتها غير مجتمعه.

يمرُّ على محلات تبيع الأحذية البنِّية والسوداء، وهناك أحذية بيضـاء وصفراء. هو أيضًا لا يبالي؛ ازداد سُمْك الجلد في قدميه فما حاجتهمـا لجلد البقر.

وهناك محلات لعصير الفاكهة والوجبات السريعة، وهو لا يشعر بجوع أو عطش.

ثم تسمَّرت ساقاه فجأة أمام واجهة محل.. بالفاترينة يقف تمثال لأنثى، صُبَّ جسدها في قالب بمقاييس الجمال.. اكتسى هذا الجسد بملابس بحر حريرية من قطعتين، فوقهما روب من الحرير الملوَّن لا يستر ساقها المتقدمة عن الأخرى.

وقف المتشرد البائس يتأمَّل الموديل.. يتفحص أجزاء جسدها عضوًا عضوًا.. دبَّ النشاط في جسده عضوًا عضوًا.

تخيَّل عينيها ترنوان إليه.. تخيل شفتيها تبتسمان له.. شعر بحاجبيها ترتفعان وتهبطان له، بدأ يلاغيها بحاجبيه، وابتسامته، وشَرَه عينيه.

تجرَّأ ومدَّ يده يدعوها للانطلاق معه، ولما كان صادقًا في دعواه لبَّت نداءه.. مدَّت يدها وخطَّت خارج زجاج الفاترينة بخطواتٍ رشيقة.. انطلقت بصحبته.

ظلا يركضان ويركضان فوق رمل الشاطئ الخالي إلا منهما..

ظلا يضحكان ويضحكان حتى سمعت ضحكاتهما نجمة نائمة في السماء فاستيقظت تصفق لهما.

سحبها من يدها ناحية البحر.. تردَّدت خجلى، وهزَّت كتفيها في دلال.

جذب ذراعها بإصرار لطيف.. مشت معه مستسلمة بحذر.. ظلا يتوغلان داخل المياه رويدًا رويدًا..

تغطِّي المياه أقدامهما، ساقيهما، أفخاذهما، ارتفعت إلى البطن فالصدر.
قفزا لأعلى يصدَّان الموجة فالموجة الأخرى.. تمدَّدا بنعومة فوق سطح المياه.. ظلا يسبحان ويسبحان دون أن تبتلَّ ملابسها الحريرية الناعمة.
كست الشمس جسدها بأشعَّتها الذهبية فورَّدت وَجْنَتيها أكثر.
اقترب يقطف لهيبهما بشوق.
ظل يضغط بشفتيه ويضغط فوق زجاج الفاترينة.
قذفه صاحب المحل بطول ذراعه على الرصيف.. فشُجَّت رأسه.

**

(الرافد – فبراير ٢٠٠٢)
(الثقافة الجديدة – يناير ٢٠٠٦)

صحا الرجل على استجواب الملكين:

من ربك..؟ ما دينك..؟ من الرجل الذي بعث فيكم؟

وحين اعتدل لم تبصر عيناه.. حرّك يده لتبحث في تجويفهما:

– العينان ليستا هنا.

بهذا شعرت اليد وأرسلت إشارتها إلى مخ الرجل فصاح على الفور:

– وا عيناه! أين عيناي أيها الملكان؟! ألم أغمضهما أمامكما.

– بلي، ولكن الطبيب نقلهما إلى محجري رجل آخر.

قالها الملكان دون أن يُظهرا استنكارًا أو أسفًا.. رد الرجل:

– حبيبتاي.. هما دليلاي وشفيعاي يوم الدين.. ماذا حدث لهما من بعدي؟!

ردَّ الملكان:

– ما كل هذه الحسرة؟ عيناك أنقذتا رجلا آخر من العمى، فسعدَ هو وأسرته ولك الأجر والثواب.

– أحقًّا لي أجر وثواب؟! فهل لا تزالان تسهران في مناجاة رب العالمين؟! أريد أن أطمئن على عيني.

قال هذا واعتمد بكفيه على ركبتيه لينهض ولكنه سقط.

– ماذا حدث لساقي أيضًا أيها الملكان؟!

– لا شيء؛ أخذهما الطبيب لآخر.

- ولماذا أنا؟ ولماذا ركبتاي؟!

- استطاع الآخر أن يخطو بهما في سبيل رزقه بعدما انقطع به السعي.. ولك الجزاء الأوفر.

- وا ركبتاه! وكيف أمشي معكما لأرى مصير عيني، وركبتي.

- يمكننا حملك.. المشكلة أنك إذا خرجت من هنا فلن تستطيع التنفُّس.

- لماذا؟!

- أنت بلا رئتين.

- وا رئتاه! ولماذا أنا دون خلق الله بلا رئتين؟

- أخذهما الطبيب ليُنقذ آخر كاد يقطع النفَس، فلك أجر إحياء رجل.

- ولماذا لم تحييانى أنا وتحييان رجلاً آخر؟!

- أنت توقَّف قلبك فلم يَعُدْ للتنفُّس جدوى.

- متي توقَّف قلبي وقد دخلت المستشفى بالمغص الكلوي؟

- بعد أن استأصل منك الطبيب كليتيك وزرعهما لآخر توقَّف قلبك لحظات.

- توقَّف قلبي!!

- نعم وحتى لا يموت بلا فائدة أسرع الطبيب الماهر بنقل القلب وأعطاه لآخر كان في انتظاره.

- آخر .. آخر.. وأنا وحرمة جسدي..!!

- إنها مهارة الطبيب، وإنجازات الطب الحديث.

- وا كليتاه! وا قلباه! بئس هي المهارة.
- الطب كل يوم في جديد لك أن تفرح.
- وهل أخذ الطبيب الهمام شيئًا آخر.. قولا مرة واحدة.
- نعم أخذ الطحال، والكبد، والنخاع و...
- إذن لم يبق سوى الجلد والعظام.

سكت الملكان قليلا وقالا:

- احمد ربك أنك لم تجزأ، وتعبأ في أكياس.. لكنت الآن ضمن قائمة الأطعمة الفاخرة.
- أطعمة.. فاخرة..!!
- نعم.. لحساب شركة اللحوم البشرية الأمريكية.
- يا سلام.. أيأكلون لحوم البشر الآن..؟!
- يبدو أن لحمك المقدد، وسنّك المتقدمة وراء حمايتك من هذا المصير.

ندب الميت ما آل إليه الحال، وتذكر جريمة القتل الأولى حين قتل قابيل أخاه، وحمله على كتفه ودار به في فضاء الدنيا لا يعرف كيف يواري جسده، وهو في قمة عجزه ويأسه لم يفكر أن يأكله.. فصاح منفعلا:

- ولكن هذا ضد الفطرة..!!
- التقدم والحضارة أيها المسكين.. هم الآن يطبخون لحم البشر

بعدة طرق، ويقولون: إنه أفضل طعام.

– آه يا عيني.. لو كانت حبيبتاي معي لبرقتا من الفزع.

– وما يفزعك..؟

– هل تحت وطأة الحاجة يضطر أهلي لبيعي هكذا.. قطعة قطعة بلا رحمة؟!

– لم يبعك أهلك.. فلا تظلمهم.

– تقصد أنهم تبرَّعوا بي؟!

– لا.. لم يتبرّعوا بك.. أنت سُرقت، كله من فعل الطبيب الحاذق.

– الفقير يُسرَق يا ناس!! فأنا لم ألبس ثوبا جديدا في حياتي إلا كفني.

– احمد ربك أن لديك ما يسرق، فأنت مجتمعًا لا تساوي كفنك، ولكن إذا باعوك قطع غيار فأنت تساوي الكثير.. والكثير.

– وما قيمتي بدون أعضائي؟!

– حسبك أن أعضاءك الآن تحيا في النعيم.

– عيناي تريان بعدي!! لابد أنهما تنظران الآن إلى ما حرّم الله.

– من أدراك بهذا؟!!

– لأن من يشتري نِعَم الغير لا يحسن استخدامها.

– قد تكون على حق.. المهم.. أجب عن الأسئلة.

– أمحاكمة بلا شهود نفي وإثبات.. قوما بحملي الآن إلى شـــهودي.. إلى عيني ونخاعي وبقية أعضائي؛ لتعرفا منها كيـــف كـــان حـــالي معها.

هيّأ الملكان الأسباب لخروج الرجل من قبره، وكان يضمر في نفســـه أنه بمجرّد أن يصل إلى أي عضو له يهجم عليه ويســـترده، ولكـــن الملكين اطّلعا علي سريرته فحذّراه لأنه مات وانتهى أمره.. ثم ذهب به الملكان إلى حيث عيناه:

– ها هو صاحب عينيك.

– صفا لي حاله.

– يجلس في حجرة مكتب فخيم، يتصفح أوراقًا أمامه، ويـــدقّق فيهـــا النظر.

– ماذا في هذه الأوراق؟

– حساباته في البنوك، أو حسابات البنوك في حسابه الشخصي.

– وكيف تنتقل حسابات الناس جميعا إلى حسابه الشخصي.

– هذه لعبة ذكاء يلعبها بعض رجال الأعمال لحساب أنفسهم.

– ألم أقل لكما: إن عيني في خطر، كانا معي لا يدقّقان إلا في كتاب الله وسنة حبيبي (صلي الله عليه وسلم).

– اطمئنّ الحكومة لا تتركهم.

– كيف؟!

– تتعقبهم.. فمنهم من تقبض عليه وتودعه السجن، ومنهم من يهرب بالملايين فتضطر الحكومة إلى أخذه بالحيلة حتى يعود بالمال الـذي هرّبه.

– وكيف تأخذه بالحيلة؟

– تعطيه بعض الصلاحيات، مقعدًا تحت القبّة مثلا.

– القبة.!! حصانة.!!

صاح الملكان:

– ها هو الرجل يتحرك من مكتبه، ينادي السكرتيرة.

– أريد أن أمضي اليوم مع هذا الرجل.. صاحب عيني.

انتظر إنه لا يزال يكلم السكرتيرة.. يقول لها إنه ذاهب.. يتفحصـها بعينيه.. السكرتيرة تضحك.. تقول له: " يا لجمال عينيك"

– جمال عيني أنا.!!

– بل هو يا أخي.

– نعم.. نعم.. بالتأكيد فهما عليه أجمل.

كلُّ الحوادث مبداها من النظر = ومعظم النار من مستصغَر الشرر

كم نظرةٍ فعلت في قلب صاحبها = فعلَ السهام بلا قوس ولا وتر

– أهذا وقت إنشاد الأشعار؟!

– هيا اتْبعا الرجل حيث يروح وصفا لي ما يفعل.

– إنه ينظر لكل امرأة في الطريق، يلفُّها بلمحة واحدة، حتى تلك التي تمشي مع زوجها.

– أعوذ بالله .. وإلى أين هو ذاهب؟

– إلى ملهى راقص.. يغازل الجميلات، يغمز بعينيه لواحدة، يسبِّلهما للأخرى، ويحدِّق في الثالثة.. ها هما عيناه تبرقان حين بدت الراقصة بألوان الطيف.. يتابعها وهي تدور كالفراشة، يظل شاخصًا حتى رجع إليه البصر وهو حسير.. إنه يداعبها بقوله:

"عيني عليك باردة"!

– حدَّث الرجل نفسه بغيظ:

"من يصدِّق أن هاتين العينين الزائغتين كانتا لي"؟!!

والمرء ما دام ذا عين يقلبها = في أعين الغيد موقوف على الخطر

يسرُّ مُقلتَه ما ضَرَّ مُهجتَه = لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

صاح الملكان:

– أما زلت تُنشد الأشعار.. لقد جئنا لسؤالك ولم تجب عن الأسئلة!

– أنا فعلاً أفكر فيما كيف يكون عليه الحساب.؟!

–هاتان العينان كانتا معي صالحتين تدخلان الجنة، هما الآن من أهل النار.

كيف تُحرَق عينيَّ بذنب غيري.؟!

والأهم من ذلك، مع من ستشهدان يوم الحساب.؟!

هل ستعترفان بأنني أكرمتهما حين نزَّهتهما عن النظرة الحرام.؟!

وأن هذا الرجل البصباص يهينهما؟

أم ستشهدان بأنه متَّعهما؟ دلاني كيف يكون الحساب؟!!

– لا شأن لنا بما تفكِّر فيه، ولا بهذه الفلسفة، فلنا مَهمَّة محدَّدة.

– ولماذا لم يأخذ الطبيب الماهر عقلي أيضا حتى لا أفكِّـر، ويأخـذ لساني حتى لا أجيب عن أي سؤال؟!

**

(حواء– ١٤ فبراير ٢٠٠٤)

(مجلة المحيط – العدد ٥٩ سبتمبر ٢٠٠٦)

الجَمَل والجمّال

(قالوا: الجمل طلع النخلة، ذا الجمل وذي النخلة)

تحنجل أطفالُ القرية، وأنشدوا المثل التاريخي (الجمل والنخلة) لحَّنوه، وغنَّوه، ضاربين على دفوفهم، متجولين في الحواري والأزقَّة، وكل بيت في القرية يعرف القصة منذ بدايتها.

وبدايتها كانت بالأمس القريب؛ فقد حدَث شيءٌ غريب لَم يتوقعه أحد، وأوقف البلدة كلها في ذُهُول، وهم يشاهدون الجمل الصغير يفلتُ مِن يدِ صاحبه، ويسرع نحو النخْلة، ويتسلَّقها بحرفية وخفَّة ورشاقةَ مُدرَّب، ثم ينزل منها بالسهولة نفسها! حتى إن الجمَّال نفسَه ما كان يعرف أن في جَمَله هذه المهارة الفائقة.

دُهش في البداية، وطلب من الجمل أن يكرِّر الفعل، ففَعَل، فانقلبتْ دهشتُه إلى سرور غامر، وبسملة وحوْقَلة، ورقى الجملُ خوفًا من العُيُون المتَطَلِّعة في تطفُّل شديد.

هذه الفِعْلة أنقذت الجمل من البيع في السوق غدًا، وأنقذت الجمَّال من الفقر الذي أنشب أظافره، فلم يعدْ لديه أمتعة ينقلها له الجمل، وفي كل بيتٍ تقريبًا نوعٌ من البهائم يستخدمها أصحابها في شؤونهم، فلم يعد لجمله فائدة نقل له ولا لغيره، وبالطبع لن يدخل به في سباق الهجن،

كل هذا اضطره للتفكير الطويل قبل أن يقررَ بيع الجمل، فليس معقولاً أن يُبقى على جملٍ يأكل ويرعى من أجل بعض الصوف لعمل الطواقي!

من يومها والجمل والجمَّال في حالٍ منَ النَّشْوة، يرقدان في الظِّلِّ الوارف، وفى الشمس الدافئة، طوال اليوم.

وعند المغرب يجتمع نفر من أهل القرية يريدون أن يروا الجمل وهو يتسلَّق النخلة كالقط السيامي، فيشير لهم الجمَّال بالعصا التي اقتناها حديثًا أن يبتعدوا ويصنعوا حلقة منظمة بدقة وإلا...

فيفعلون صاغرين، وبالطبع هم يدفعون في مقابل هذا المشهد ما يفرضه عليهم الجمَّال.

وهؤلاء المتفرجون لا يدفعون ثمن المشهد فقط، ولكن أيضًا هم يتكفلون بثمن الجلباب الصوف الذي ابتاعه الجمَّال، وثمن تغيير بعض العادات بالنسبة له.

فبمرور الوقت سئِم الجمَّال هذه الحياة البدائية، فقرر أن يطوِّرها.

أولا: تغيَّر نوع الأكل الذي يتناوله الجمل، فلم يعد يتغذَّى كسائر الحيوانات العُشبيَّة على الحشائش، وأوراق الشجر، والنباتات الشوكيَّة، بل صار يأكل التفَّاح والموز، ويتناول الخبز الإفرنجي، وأنواعًا من التغذية الجيدة والمدروسة بمقادير أُنْشِئ لها مطبخٌ خاص، وعُيِّن لها الخبراء، و.. يشرب العصائر الطازجة.

ليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل أصبح يُفَكِّر في عمليَّة تجميل لرتْق شفته العليا المشقوقة، فما عاد في حاجة إليها الآن، وهي التي كانت تساعد في تجميع الأشواك الجافة، ومضْغها بكفاءَة عالية ولم يعد.

ولَم يدفع المتفرجون ثمن إطعامه فقط، بل متعته وترفيهه، والعمل على تحسين أدائه؛ فطموح الجمَّال ليس له حد، فكر كيف يحافظ على الجمل من غدْر الأيام، وربما من المتفرجين أنفسهم، فاتخذ له تعريشة من أغصان، ثم صارتْ بيتًا من حجارة، ثم قصرًا منيفًا!

ومد القصر بعين ماء زلال يمشي في مواسير، فهو غير سكان القرية الذين يشربون الماء الخام من النهر مباشرة.

ثم لاحظ أن الجمل يتعب بعد كلِّ عرْض يقوم به، فعَيَّنَ مَنْ يقوم بتدليك جسده وعمل (السَّوْنا) له؛ ليظل ليِّنًا قادرًا على مُهمَّتِه؛ ولهذا كله كان حمام البخار، وتحديد يوم للاستجمام.

أما بقية الليل فيمضيه الجملُ في صُحبة الجمَّال، أو الجمَّال في معيَّة الجمل، في تراس القصر أمام شاشة العرض التي يسجل عليها مغامرات الصباح بين الجمَل والمتفرجين، ومنها يعرفان مَن حمل نظرات حقدٍ للجمل، ومن ربَّت على ظهرِه في حُنُوٍّ، ويتبادلان أطراف الحديث، وهذا هو طقسهما اليومي قبل أن يخلدا للنوم العميق.

هناك شيء دائمًا يؤرِّق الجمَّال لا يفصح عنه، ترى لو صعد الجمل النخلة يومًا، ولم يستطعِ النزول، ماذا سيكون الحال؟!!

أهل القرية أيضًا لهم ما يؤرّقهم، يدور الهمس فيما بينهم بأن هنـــاك حديثًا غامضًا يدُور بين الجمَل والجمَّال نخشى منه علـــى المســـتقبل، ويُقسِمون أن الجمل يردُّ على الجمّال بلغة لا يفهمها إلا الجمَّال نفســـه، ويؤكِّدون أن الحوار الطويل الذي يجريه الجمَّال مع الجمل عبارة عن نصائح وتوعية، تضمن لهما الاستمرار في العيش الرغيـــد والمركـــز الأبهة الذي تولَّياه.

فعلم الصوتيات أثبت أن الجمَّال يقول للجمل:

- لا تُفَرِّط في حقٍّ من حقوقك أيها الجمل الشجاع.

- لا تكثر الهزار والمزاح مع سفهاء القرية؛ حتى لا يتجـــرَّأ أحـــدهم ويلمس لك ساقًا أو ذيلاً، أو يتجرأ آخر بسبٍّ وقذف، أو يتـــذكر ثالـــث أيام بؤسك الطويلة فيعيِّرك به.

هذه الأسرار بين الجمل والجمَّال بثَّت القلق للبعض.

وإذا حاول أحدُهم أن يتسلَّق ليسمع ماذا يقول الجمَّـــال للجمـــل، هـــبَّ الجمل من فوره، ورفسه فأرداه بالقاضية؛ فله أذنان صغيرتان تسمعان دبَّة النملة، وله عينان كبيرتان تُبصران جيدًا في الليل والنهـــار علـــى مدار دائرة كاملة، أما أهدابه الكثيفة فبمثابة قرون استشعار يستطيع بها تحديد اتجاه التجسُّس.

ولذلك اضطر الجمَّال إلى بناء سور عالٍ حول القصر، وزَوَّدَه بـــبعض الحرَس المأجورين، وعاش الجمل في أمان في كنف الجمـــال يســـمع

ويخزن ويهزُّ رأسه سمعًا وطاعة واستيعابًا، فكل ما يفعله من أجل صالحه وسعادته.

وذات مساء والجمل والجمّال في حالة من الاسترخاء والحوار، نظر الجمَّال إلى السماء، وقال:

"يا الله، كيف فاتني هذا الأمر؟!

وهبَّ واقفًا، فهب معه الجمل، وقد أدرك خطورة ما خطر على ذهنِ صاحبِهِ، ففتح عينيه عن آخرهما؛ دليل استعداده للفهم.

قال الجمَّال:

- التركة! هذه التركة المميزة لمن نتركها أنا وأنت أيها الجمل؟!!

- لو مات أحدنا تسلَّق الرعاع إلى بيتِنا، وأخذوا مكانَنَا، فهناك مَن يتربّص لذلك، يا جملي الجميل، ولهم حلم وأطماع فيما نحن فيه من صدارة، ونحن - الاثنين - بلا عائلة، هل تموت كلالةً وأنا مثلك، لابد أن نتزوج أنا وأنت لينجب كل منَّا وريثًا.

تعلمت القرية كيف تقيم الاحتفالات وتقدِّم التبريكات.

احتفلت القرية كلها بعُرس الجمل والجمال، فالجملُ تخيَّروا له ناقة من أجود النِّياق، قوة وأصلاً، والجمَّال تزوَّج جميلة الجميلات، ومِن أعرق العائلات.

ولأنَّ كلا من العَرُوس والناقة تعرف دورها بالتمام والمَهمَّة التي جاءتْ من أجلها، ولدتْ له الناقة بعد عام بالتمام - وهي واقفة - سليلاً جيدًا، طوله ٩٠ سنتيمترًا، ووزنه ٥٠ كيلو جرامًا، وأخذتْ

تُرضعه، فلمَّا وقف على قدميه بعد ساعتين من ولادَتِه، هلَّل الجمَّال وكبَّر، فتجاوب معه أهلُ القرية، وباركوا للجمل، ودعوا له بطول العمر حتى يرى وريثه في مكانه.

أما العروس فقد سبقت الجمل بثلاثة أشهرٍ، وضعتْ وليَّ العهد سليل المجد، وكان الجمَّال قد أجَّل الاحتفال بِمَوْلُودِه حتى تلد الناقة، وها هي قد ولدتْ ووجب الاحتفال، أقام الجمَّال احتفالاً للمناسبتَيْن.

وكما في كل احتفال يلتفُّ أهل القرية، في رقص وطرب ومرح، لكن هذه المرة كان بينهم متربِّص حاقدٌ، فمع كل أملٍ يظهر حاقدٌ، ولا نعرف وقتًا لظهورِه، أطلق عدة طلقات في الهواء وواحدة قصد بها عن عمْد رأس الجمل.

الحزن الذي أصاب الجمَّال كاد يودي به، لولا الأمل الصغير الذي سيكبر ويحتاج إلى رعاية، صارتْ مهمة الجمَّال مُضاعفة بين ابنه وابن الجمل، ظل يرضعه الخبرات ويعيد عليه الوصايا، وينظر للسماء داعيًا الله أن يتحقَّق حلمه، ويمسك الجمل الصغير مكان الجمل الراحل، وحتى يكبر الابن الصغير ويأخذ مكان الأب.

**

(مجلة الهلال – أغسطس ٢٠١٤)

الشاطر قنديل

دقَّت الدفوف.. أعلن الدرويش:

بسم الله نبدأ الموكب، صحت على أمي:

– زفة عم قنديل الحلو.. أنا ذاهبة لألحق بالزفة.

تصرخ أمي:

– يا بنت عيب أنت كبرتِ على هذه التصرفات.

يصرخ أخي الصغير رافعًا ذراعيه لكي أحمله.

تنهّدت أمي في استسلام:

– خذيه معك.

"ألفع" الولد أذرعه في وسطي، وأجري لألحق بالأولاد؛ بنات، صبيان، حفاة ومنتعلين، ورغم أنني أطْولهم قامة، لكن لا يشكل لي هذا حرجًا، ألفُّ أخي باليد اليسرى وأشير باليمنى:

– انتظروا انتظروا أنا معكم.

تصرخ فتحية بنت عم حسن صاحب السرجة:

– الزفة واقفة قدامك، مالك "مسربعه"؟!!

عم قنديل فوق الحصان، والرجال يتحلقون حوله، يتشاورون من أين تبدأ الزفة، يرتفع صوت أحدهم:

- مثل العام الماضي؛ المسيرة من درب الجماميز، وحتى بركة الفيل، ثم شارع قدري فميدان السيدة زينب، ونمشي حتى شارع السد، ثم أبو الريش، ثم نعود بإذن الله.

الجميع:

-على بركة الله.

نلف الشوارع خلف الحصان، عم قنديل فوقه مثل الباشا، جلباب ناصع بياضه، فوقه عباءة خوخية اللون في غاية الأبهة، أمام الحصان يوجد الدراويش، بالدفوف يرددون المدائح النبوية، يتعب الأطفال من طول اللف، يتسربون الواحد بعد الآخر.. أصر على الاستمرار.. أقاوم التعب وأقاوم، رغم ثقل أخي الذى أحمله:

- خذيه يا فتحية عني تعبت منه.

- هاتِ يا أختي.. لماذا أتيت به.؟!

- هو الذي "شبط"، خفت أمي تقول لي اقعدي.

دأ الولد في القلق، يصرخ علي يد فتحية، يخمش وجهها:

ي يا زينب أخوك بهدلني.

أخذه منها أعيد ذرعه في وسطي، رغم بكائه وشده لشعري، أسرع خلف الموكب، أصرخ فيه:

- لماذا أتيت معي؟ كنت قعدت مع أمك.!!

لا يفهم ما أقول، يعبر عن ضيقه وجوعه، بضربي، يخمش وجهي:

- ولو.. لن أترك الزفة.

أنتظر هذا الموكب من السنة للسنة، لم يفتني ولا مرة منذ أن انتبهت مداركي، كل سنة أمشي وراء الزفة في ذهابها وإيابها، وهاهي عائدة يا "بوذ الإخص".. بدلا من الصراخ شاهد الزفة انظر عم قنديل مثل القمر، على من تبحث يا عم قنديل بحصانك الأبيض، على ست الحسن التي في حكايات أمي، كانت تقول إن الشاطر حسن يأتي بحصان أبيض ليخطف ست الحسن على حصانه ويطير!!

وجدتني أتلفت يمينا وشمالا أريد أن أرى ست الحسن التي سيخطفها عم قنديل أو التي ستخطفه هي مني، لم أجدها ترى ألا يراها غيرك يا شاطر قنديل.

ولكن عم قنديل لم يخطف أي واحدة، لا في هذا العام ولا الأعوام السابقة، ربما لم يجدها بعد، ربما ينتظرها حتى تكبر، حتى أكبر أنا، وأصير ست الحسن، ليتك تنتظرني يا عم قنديل.

– اسكت يا "نيلة"، ايقظتني من الحلم الجميل، اتفضل هذه أمك، خذي يامه بهدلني، وبهدل البنت فتحية، كسر وسطي، وشد شعري، "وقرفني آخر قرف".

أدخل وأندلق على أقرب كنبة، أنتظر حتى تهدأ ضربات قلبي، بعد قليل أنهض، أغسل وجهي، وأفتح الحلة، ألتقت أربع أصابع كفتة، تصرخ أمي:

– يا بنت انتظري أخواتك، واغرفي في طبق.

لا أرد تنتهي مهمتي، أغسل يديّ وفمي وأتسلل دون أن تلحظ خروجي، أتنهد حينما أراني خارج باب الشقة وأجري مسرعة إلى الصوان.. عم قنديل يجلس على كرسي قطيفة، حوله رجال يرتدون القفاطين، والعبيان، ويتعممون بشكل مميز ومتشابه، ألجأ إلى ركن الأولاد، من هنا أشاهد كل شيء بوضوح، أرى أبي وهو يدخل الصوان ويخطو نحو عم قنديل، يسلم عليه وعلى الشيوخ، يأخذ مكانه في المجلس، وتبدأ الأناشيد، وتبدأ أحلامي في الابحار.

«لما أكبر أجلس بجوار عم قنديل هنا في هذا المجلس، صحيح أنه لا توجد ولا واحدة ست داخل الصوان!! لا يهم أنا فقط سأكون، الست؛ ست الحسن وهو الشاطر حسن أو الشاطر قنديل لا فرق، سيقول هاتوا ست الحسن بجواري، ويفسح لي الجميع المكان، وأجلس مكان هذا الشيخ الملتصق به، ويجلس هو بعيدا»

- هيا يا أولاد على بيت مولانا قنديل الحلو، الست عوزاكم.

ينهض العيال صائحين:

- هييه، لقمة القاضي.. لقمة القاضي.

أنهض معهم متثاقلة، أريد أن أبقى هنا بجوار الشاطر، لا يصح أن أبقى وحدي، ألحق بالأولاد، على بيت عم قنديل، زوجته تجلس على بسطة السلم أمام باب شقتها، بجوارها نسوة كثيرات من بينهن أمي، تلمحني:

- جئتى يافالحة.. خذي أخوك.

أشيح بوجهي.. أرقب النسوة أمام وابور الجاز، يصنعن حلوى لقمة القاضي ويوزعن على الأولاد، أنظر إلى زوجته؛ نصف عجوز، يتصارع على وجهها ماء الشباب مع تجعيد الشيخوخة، فيهزم كل منهما الآخر مرة، سمينة، بيضاء جدا، طيبة جدا جدا، يحبها كل الأولاد يصيحون:

- هاتِ يا خالتي.. هاتِ يا خالتي.

أقف صامتة، تربت على كتفي.

- والله كبرت يازينب وصرتِ عروس.

تناولني الورقة عليها بضع حبات من لقمة القاضي، أخذها منها وأتفحص صاحبتها وأنا لا أستطيع تحديد مشاعري نحوها؛ هل هي غبطة، أم غيرة!!

ذات المساء انتقل جمع من الرجال إلى بيتنا لأول مرة، أبي تبدلت ثيابه، هذه ناصع بياضها، الرجال يصلون على النبي ويدعون بالبركة للبيت وأهله، يضع الشاطر قنديل يده في يد أبي كالمصافحة، يقول كلمات وأبي يرددها بعده.. ثم يقول وحده:

«واستخرت الله العظيم، وغطيت رأسه في المجلس العام المحتوي على الأفاضل الكرام، وأذنته بافتتاح مجالس الذكر وإعطاء العهود على الوجه المعهود»

قام الرجال يهنئون أبي.. والنساء يزغردن.. قال أحدهم لأبي:

– لقد صرت ممن دخل في رحابها، وانتظم في سلسلة أهلها.

– ماذا يُفعل بأبي يا ناس؟

اقترب مني أحد الأفاضل الكرام وقال:

– يأخذ العهد على يد الشيخ قنديل الحلو، ربنا يجعلنا من بركاته.

قال الآخر قد استقامت أحواله، وظهرت أفضاله بأخذه وتلقينه.. وسيزف على الحصان مثل شيخه.

– هل يصلح أن آخذ العهد مثله.

نظر لي الشاطر قنديل من بعيد وأشار لي أن اقترب، فاقتربت وأنا أرتعد، وأشار لي أن أجلس بجواره، فجلست وأكاد أن يغشى عليَّ هل تتحقق الأمنيات هكذا سريعا، مد يده يصافحني، فمددت يدي المرتجفة، والناس يهللون:

- ما شاء الله ما شاء الله.. شيختنا الصغيرة.

- ما هذا الفتح العظيم يا أبا زينب!!

- الشيخ قنديل مكشوف عنه الحجاب.

كان الشيخ قنديل يقول كلمات يقف ترديدها في حلقي من جفافه، ولما زاد ارتعاش جسدي اقترب بجسمه ليهدىء من روعي، الغريب أنني وجدت جسده هو الآخر يرتجف، أخذ يمسح جسدي بيديه ويقول كلمات لا أتبينها، وعندما لامست يده أسفل ظهري واستقرت مكانها، لا أدري كيف انتفضت واقفة وصفعته على وجهه أمام الجميع، وحينها سكن ارتجاف جسدي.

••

(حواء- ٢٣/ فبراير/ ٢٠١٣)
(موقع القصة العربية- ٢٠١٦/٢/١٧)

امرأة مثالية

ظل حبيبي مدة طويلة إلى أن دخلت حياتنا تلك السمراء الجذّابة.. انضمَّت إلى فريق العمل في مؤسستنا، وخصَّتني أنا وهو من بين الزملاء بصداقتها.. بهرت أعيننا بسمرة طمي النيل التي أتت من بلاده، هيفاء كامتداده في طول أرض مصر.. صافية كصفاء مائه، ومثله رقراقة، عذبة كعذوبة طعمه وترياقه، خضراء الثوب كخيره الممتدّ على ضفَّتيه، مرويَّة من جبين ذوي السواعد العفيَّة.. حورية في ثوب امرأة، فكيف لا يحبها؟!.. أحببتها أنا أيضا.

كنا عصفورين مغرِّدين، ليس على شجر ولكن على ضفاف النيل الذي تواعدنا معه أسبوعيًّا، كانت نظراتنا تتَّجه في آن واحد ناحية الجنوب، حكينا كثيرًا عن المارد الواقف هناك ببوَّاباته الست يأتينا الخير من ورائه، كأننا كنا نناديها.. وأتت تحمل سنابل حكايات وأساطير أسوانية فرعونية نوبية سودانية في مزيج يأخذ بالألباب، مع قدرة على السرد تتملك الإحساس، نستمع بعيون مفتوحة وأذان مصغية، ورأس كأن فوقه الطير.

– ما اسم الصبية؟

اسمها يحمل كل الزهور ويخلطها ويكثفها في قنينة مزركشة مجزعة محكمة الغطاء.. ما أن تُفتح حتى ينتشر عطرها في المكان يشنِّف

الأنوف لا الأذان، ويتغلغل داخل الروح والوجدان ويداعب الأعصاب والدماء، هل أنتم فى حاجة لمعرفته؛ إنها عبير؟!

سعدنا بصحبتها وصداقتها، وسعدت بنا.. ثلاثتنا سعيد ولكنه أراد أن يستأثر بالعطر وحده، بالسحر وحده، بالخير وحده.

اختلفت مواعيده، بدأ يتهرب من لقائي، لما عرفت السبب لم أغضب.!! ببساطة لأن السبب هي.. تصوَّروا!!

والحكاية تبدأ يوم أن قال:

– آسف يا عزيزتي ستذهبين إلى البيت وحدك، سيارتي في التصليح، وأنا ذاهب إلى الميكانيكي لأبقى بجانبها.

لا بأس فالعذر مقبول.. وفى اليوم التالي قال:

ستذهبين وحدك اليوم وغدًا وبعد غد.. السيارة تحتاج وقتا طويلا.

أيضًا لا بأس.. ولكن في اليوم التالي جاءت صديقتنا لتخبرني أن "عادل" جزاه الله خيرا أوصلها بالأمس بسيارته.

تبسَّمت ومدحت لها شهامته وحسن أخلاقه.. تصوَّروا.!!

لم يجد بعدها كثير عناء في التخلص مني، فقبل موعد الانصراف أكون قد سبقت إلى الخارج.

قبل أن يتلفّت حواليه ويفكّر في عذر يتملّص به مني، وقبل أن تدور عيناه بيني وبينها، ويفرك كفَّيه، ويعدل من ياقة قميصه.. و.. و.. ما حاجتي لأكاذيبه وهي تحكي لي الحقيقة:

- بالأمس جلسنا على ضفاف النيل، كان ينظر ناحية الجنوب من حيث أتيت.. أهتف في داخلي:

"رائع هو دائما ينظر إلى الجديد"

- لماذا لا تردِّين..؟

- أسمع وأتخيَّل منبع الماء المتجدِّد.

- أول أمس صعدنا جبل المقطم.

- عظيم.. الصعود متعة.. ومنظر القاهرة من فوق الجبل ساحر.

تكمل:

- ظل يحكى لي عن وَحْدته وحاجته إلى عقلي.. و.. لماذا تبتسمين..؟

- أبدًا أفكر في وحدة الرجال الدائمة.. وحاجاتهم إلى العقل.

- ماذا تقصدين..؟

وأُسقط في يدي.. هل بدأ كلامي يأخذ شكل التحذير لها؟!! هل هي الغيرة أم الخوف عليها؟

رنّت الجملة الأخيرة بداخلي.. الخوف عليها!! ممن.؟ عادل.!! نِعم الرجل هو.. وإذا كان يشكو الوحدة فلابد أنه يشعر بها.

الغريب أنني لم أحاول استعادته.. رغبت في متابعة تجربة حبِّه الجديدة وهي تولد حية على يدى.. تعطّفت صديقتي وسألتني:

- ما هى أخبار زوجك؟

- يشكو الوحدة.

- لماذا لا تحاولين ملء حياته؟!!

- ليس بي رغبة.

- وتتركينه نهبا للوحدة.؟

- هو يحاول مع نفسه.. يجلس على ضفاف النيل ويصعد المقطم.

تبتسم وتقول:

- أما أنا فعندما أتزوج "عادل" لن أجعله يشكو الوحدة أبدًا.

- ربما.

- هل زوجك يعرف امرأة أخرى.؟

- نعم.

- وتسكتين.

- ماذا أفعل..؟

- تـــثورين وتقلبين الدنيا.

- لا أرغب.

- لا أرغب.. لا أرغب.. هل مللته؟

- ليس تماما.

- أما أنا فعندما أتزوج "عادل" فلن أملَّ منه أبدا.

- هذا حقيقي.

- وكيف عرفت أنه يعرف امرأة أخرى.؟

- حاسة المرأة السادسة.. أسمعت فايزة أحمد وهى تقول:

" إني أراها في جوار الموقد.. أخذت هنالك مقعدي في الركن ذات المقعد.. وأراك تمنحها يدا مثلوجة ذات اليد.. ستردد القصص التي أسمعتني.. ولسوف تخبرها بما أخبرتني.. وستجرع الكأس التي جرعتني.. إلى آخره"

تضحك وتخبط كفّيها:

- أتعجب من أمرك والله.!! تعرفين كل هذا وتصمتين.؟

- دعيك مني واحكي لي عن حبك أنت.

- استمر الحال مدة ليست بالقليلة أضاع خلالها معالم السيارة تماما ثم قال لي:

- بعتها، وقالت:

- غيّر سيارته بأخرى فى لون عيني.

- لون عينيك لا يوصف.. كيف عرفه.؟

ضحكت:

- كأنك رجلا يغازلني.

- الجمال يغازله المتذوّق له.

- تريننى جميلة إلى هذا الحد.

نعم والتمست له العذر.. كيف يظهر سيارته أمامي ويضطر لتوصيلي والتأخر عليها.. ثم إن الدقائق التي أغادر فيها قبله وعدم سؤاله عمّ أخّره أراح ضميره من البحث عن الأكاذيب.

والحب لابد أن يتوّج بالزواج.. استطاع بسحر الرجولة أن يستوعب الأسطورة.. جاءت بأصبع متلألئ.. قالت:

- انظري كم هي جميلة.!

- الأجمل أن اسمه عليها.

- بالضبط.. أجمل دبلة في الوجود.

- أنت وقعت على رجل ليس له مثيل.

وتعجبت من نفسي.. حتى خطبتها له لم يثرني.. نظرتُ إلى يديها في مباركة حقيقية.. تأملت جمال أصابعها بفرحة تناسب صديقة عزيزة أتمنى لها الخير.. وشعرت بمدى تعاستها لو صحت على الواقع.. لا سأرباً بصديقتي الجميلة التي تثق بي من هذا الواقع المؤلم.

- مبارك يا عبير تستحقين كل الخير.

- ليتني أستحق "عادل"

- متى الفرح إن شاء الله.؟

- قريبا.. قال: عنده بعض المشكلات سينهيها قريبا.

- لا ليس عنده مشكلات على الاطلاق اطمئني.

- كيف عرفت.؟

- هو زميل قديم، وأعرف عنه الكثير من أمه، أوصيك بكوب العصير في الصباح، وبفنجان القهوة المضبوط في الظهيرة، وبكوب الزبادى في العشاء.

- هل ستكلمينه لينهي مشكلاته بسرعة.؟

- نعم، سأعمل كل ما في وسعي.. المهم أريدك أن تطمئني.

- والمطلوب مني.

- تقولين لي أين يركن سيارته.؟

- ها هو مفتاحها أسبقه إليها حتى لا يشعر الزملاء.

عندما جلس أمام مقود السيارة واكتشف أن التي بجواره أنا كاد يغمى عليه.. لحقته بزجاجة عطري.. رششت عبيرها أمام أنفه حتى استرد عافيته وقلت وكلي راحة لا أدري مصدرها:

- عبير نعم الزوجة، هي تحبك أكثر مني وتستحق مثلك، وقد وعدتها أنك ستنهي مشكلاتك بسرعة، لذا سنذهب الآن إلى المأذون.

آه نسيت إخباركم أن "عادل" زوجي.. تصوروا.. ولكن لا تظلموا صديقتي هي لا تعرف أن زواجنا عرفي.

**

(حواء - ٢٩ سبتمبر ٢٠٠١)

(موقع القصة العربية- ٢١فبراير٢٠٠٨)

إنهم يحيرون الأطفال

أنا لبنى.. الطفلة التي تستجدي أمها ركاب الطائرة الذاهبة إلى بلدي لكي يربيني أحدهم ساعتين من الزمان مدة إقلاع الطائرة.. أخيرا وافق أحد الركاب متجهمًا أن يقبل بهذه المَهمَّة الشاقة، أعلن موافقته في كلمات مقتضبة:

- لا مشكلة.. هاتيها.

وقفت أمي تودِّعني وتلوح لي ودموعها تملأ وجهها ولكنها بالتأكيد مستأنسة باليد التي تربت على كتفيها.. يد زوجها الذي أخذها مني إلى بلد آخر، مما جعلها تتركني في رعاية جدي. أنا لا أعرف شعوري بالضبط نحو هذا الرجل الذي دائما يشير على أمي أن تبعدني، ولكن لم يحدث أنه نهرني يوما.

أسندت رأسي إلى حافة النافذة أعاتب أبي لماذا تركني أتنقل وحيدة بين جدِّي وأمي.. أمي في الأجازة وجدي في الدراسة.. ماذا فعلت يا أبي لكي يأخذك الله ولم يتركك لنا حتى أكبر؟

أمي اشترت لي من البلد الغريب عروسًا جميلة ترقد الآن في صمت على ساقي، وقالت لي:

– دائما افعلي مثل عروستك.. عروستي لا تفعل شيئا سوى الصمت فهي لا تتحرك من المكان الذي أضعها فيه، حتى وإن أنمتها على ساقي فلن تستيقظ إلا إذا أيقظتها أنا.. هل تريد أمي ألا أتحرك ولا أتكلم إلا إذا حركني أحد؟!!

هي بالتأكيد تريد ذلك؛ ولذلك أكملت جملتها بقولها:

– حتى لا يغضب منك أحد.

فعلا أنا لا أغضب من عروستي رغم سكونها وسكوتها.

أيقظني الرجل الذي لا أعرف اسمه ولا يعرف اسمي لكي أتناول معه طعام الطائرة.. فتشت في ذهني بماذا نصحتني أمي في هذا الموقف..

ابتسم الرجل وقال في حنان:

– لابد أن تأكلي لكي تكبري.. نظرت إليه في حيرة كيف تبدلت ملامحه وصار مسرورا.؟!

يبدو أنه فرحٌ بعودته إلى أهله!! أنا أيضا فرحة بذهابي إلى جدي فقد أوحشني كثيرا، هل لهذا الرجل ابنة في مثل سني.. لن أسأله فعروستي لا تسأل

الرجل مد يده بالطعام إلى فمي وقال:

– سأحكي لك (حدوتة) وأخذ يحكي قصة سمعتها كثيرا من جدي.. لن أقاطعه فعروستي لا تقاطع .

في صالة المطار نسيت الرجل الذي تسلمني من أمي مـتجهم الوجـه، وجريت وارتميت في حِضن جدي الذي احتضنني وهو يبكي ويقول:

كنت خائفًا عليك يا حبيبتي.. هنا تذكرت عمو الذي أطعمني وحكى لي قصة فالتفت إليه وجدته هو الآخر يمسح دمعـة خفيفـة، صـممت أن أدعوه إلى بيتنا وأقول له :

- أنا أحبك يا عمو، لكن لماذا كنت غاضبا في البداية.؟!!

ضحك بصوتٍ عالٍ وربت على خدي:

جدي لم يغضب مني لأني أثرثر كثيرا وأتصرف دون إذنـه، نظـرت إلى عروستي فوجدتها تهز رأسها لي بالموافقة.

••

(جريدة تواصل- العددالتاسع- فبراير ٢٠١٤)

ألقاب وأوسمة

ما أسعدني.. لقد سعدت بحياتي، حلوها ومرّها.. هي الآن كلها جميلة، وذكرياتها تدعو للبسمة.. فلقد حصلت على جميع الألقاب التي يمكن أن تحصل عليها عدة إناث.

تزوجت متأخرة.. بعدما تمتّعت فترة لا بأس بها بلقب "عانس" في تبادل مع لقب آنسة.. آنسة في الوجه على سبيل التفضل، أما عانس فكنت أسمعه همسا مشفوعا بمصمصة شفاه البعض وتعجُّب البعض.. فلا ينقصني شيء لأحصل على زوج محترم ومرموق، لكنه النصيب.

المهم أنني خلعت هذا اللقب للأبد حين تسلمت قسيمة الزواج، وتمتعت بلقب "زوجة" مع بعض الهمس والغمز.. من قبيل:

(الحمد لله لحقت بقطار الزواج في السبنسة)

لم يدم لقب زوجة كثيرا، رغم تحمُّلي لسوء خلقه وصبري على فظاظته، وحرصي على عدم الانفصال، ومع ذلك منحني لقب "مطلَّقة" بلا شفقة ولا تروي.

حين تسلمت قسيمة طلاقي، وعرف الناس بالخبر عادت مصمصات الشفاه مع جملة:

(لو فيها خير ما رماها الطير)

عشت مع لقب مطلقة مدة لا بأس بها، وكنت في هذه المدة ورغم قسوة اللقب الذي ذكَّرني بلقب عانس من قبل، وبرغم الهمز واللمز تروَّيت في الارتباط من جديد.. فرغم كثرة من تقدموا لخطبتي فإنني صممت على عدم تكرار الفشل، الذي كان بسبب تعجلي في الارتباط.

وجاء الزوج الجديد كما وصفته الخنساء (طويل النجاد رفيع العماد) وعدت للقب زوجة، وهو لقب له سحر وجمال، ويحمل أمانًا وضمانا ومستقبلا..

وعشت في كنف رجل كريم محب ذكي طويل النجاد لكنه كان قصير العمر.. وحملت لقب "أرملة" وهو لقب يستدر عطف الناس غالبا، ولكنه معي له شأن آخر، فكان يجلب لي نظرات التشفي والحسرة مع وصفي بالمنحوسة أكثر الأحيان.

ولم يكن نحسًا كاملا فقبل رحيله كان قد أعلى حرثه وبذر بذره وترك لي نبتة الولد، ظل ينمو جنينه في بطني شيئا فشيئا ليمنحني بعد أشهر قليلة من رحيل والده لقبًا تتمنَّاه كل أنثى، لقب "أم".

عشت بعده أمًّا وأبًا وصديقة لابني وابن رفيع العماد.. أسعد بارتفاع هامته أمام عيني يوما بعد يوم، وبانتقاله من مرحلة دراسية إلى مرحلة أخرى حتى تخرج في كلية مرموقة وجاءني يزف خبر نجاحه وفي يده زميلته التي اختارها لتشاركه حياته.

لم أستطع ولم أرغب أمام إلحاحه أن أُثنيَه وأقطف فرحته، لابد من إتمامها.

تزوج ابني وسعد في حياته، وحملت لقب حماة رغم أنني كنت أمًّا مثالية ثانية لها.

واليوم كنا في هرج ومرج طوال اليوم في المستشفى مع زوجته التي منحتني لقب "جدة".

عدنا بها وبحفيدي الذي يشبه جده.. وهما الآن يغطّان في نوم عميق، وابني بالخارج يشتري احتياجات المولود وأمه.. وجلست أنا في الشرفة أنظر للسماء البعيدة، أشكر الله على نعمته وعلى رحلتي بحلوها ومرّها، هي الآن في داخلي ذكرى جميلة، تذكرت الأحداث البعيدة والقريبة في حياتي، وأتخيل الألقاب التي حصلت عليها كأنها ورود تزين حياتي، حتى القاسي منها أشعر به الآن لذيذا، وأبتسم من بعض السذاجات التي مررت بها وتوقفت عندها معتقدة أن الحياة لن تمضي.

اليوم فقط أرى تلك الألقاب أوسمة تزينني، وأحمد الله على ما متّعني به من صبر، وكافأني به من خير، ووجدتني أدوّن ما سوف تقرؤونه فيما بعد، عندما أحصل على اللقب الأخير وتقولون على أثره:

- رحمها الله!

••

(جريدة تواصل- العددالتاسع- فبراير ٢٠١٤)

صدفة وأنت لؤلؤة

حينما وصفْتَني بالصَّدَفة الرقيقة التي يتكـون بـداخلها اللؤلـؤ، رأيت نفسي صدفة ضعيفة، فيها الرقة الهشّة التي تغري بـالامتلاك، ورقّتي هي ضعفي وأنت تحب ضعفي، تحب كلمـة نعـم، حاضـر، أمرك، ولا شيء آخر.

أكملت وصفك وأنت تضحك وتقول:

– وأنا اللؤلؤة التي تتكوّن بداخلِك.

ضحكتك الصفراء أكدت عندي المعنى، أنا بيتك الذي يحميك وينتقـل معك أينما ذهبت، كم أشعر بضعفي وعزلتي بقربك برغم أنني بيتك!

أنا البيت الجامد الحجري وأنت الكائن الحـي بداخلـه.. تمنّيـت الخلاص منك ولفظك من داخلي؛ لذا سعدت بطفل يلهو على الشاطئ حين التقطني وأخرجني من الماء، مشى بي بطول الشاطئ بعيـدا.. بعيدا، وأنت تصرخ بداخلي أوشكت أن أموت، القمر الآن في كامـل استدارته.

نعم يا عزيزي أعرف أن هذا الضوء يزيد من سرعتك على الفناء. ولكن لماذا تتألم.؟ أنت تموت داخل بيتك وأنا لا ذنب لي، الطفل هـو الذي أخرجني من الماء، فرح بالصدفة ولم يعبأ بك.. لم ينتظر حتـى تتكون لؤلؤة غالية، أنا الآن في طريقي لأزين منضدته على ما يبدو.

سلّمني الطفل إلى أمه، تفحّصتني مليًّا.. صاحت:

- الله ما أجملها صدفة لكن بداخلها حيوان.

- آسفة يا حبيبي لقد وصفتك بالحيوان.

أمسك الطفل بعود خشبي أدخله في قلبي لكي يخرجك منـــه، مقطَّعًـــا مفتَّتًا.

ما باليد حيلة يا نبضة القلب.. قد كنت قلبي ونبضي رغم أن الحياة لا تتم إلا بك، قد كنت سمعي وقولي رغم أن الأمور بناصـــيتك، وأنـــا البيت الذي يؤويك ويضمُّك ويحميك من العبث والبرد.

كنت متمرِّدًا عليه جاحدا لدفئه، تنتظر يوم أن يتمَّ تكوينك؛ لتهجرني وتتمرغ بين أيدي الأثرياء المترفين.. تزين فص أصابعهم، تبرق في تاج رؤوسهم، تتلألأ فوق صدر عاجيٍّ دون أن تعرف عن مصـــيري شيئًا.

شاء الله أن أعرف أنا مصيرك.. الموت متفســـخا فـــوق الشـــاطئ، مختلطًا بالرمل، تدوسك الأقدام، وكلما داستك كنت تغوص في حبّات رماله.

ما كنت تعلم كم هو مؤلم ترك السكن، والبعد عن المكان الذي يؤويك غير هذه الساعة!!

لا تظن أني شامتة بك، أنا أتألم مثلك؛ ولكنه العجز عن فعل شيء، كيف أصيح؟ أتركوه لي؟ أنا أولى بتكوينه، أنـــا حضـــانته ومـــلاذه الآمن، حتى لو تركني بعدها وتمرغ في النعيم.

صوتي لا يسعفني، عنفك أضعفه.. قوّتك وأنت تسحبني وراءك أينما ذهبت، صوتك وأنت تأمرني بما تريد، وأنا أخفض رأسي موافقة دون بنت شفة، تباهيك بعشيقاتك أمام عيني وسمعي فأغضُّ الطرف حتى لا يسبب لك حرجًا.. كلها أشياء خفضت من قدرتي على الاستغاثة لكي أنقذك من مصيرك المؤلم.

أعلم أنني سأمضي مع هؤلاء وسأقضي باقية عمري دون كائن حيٍّ بداخلي، وأعلم أن في ذلك جفافًا أشبه بالموت الذي لاقيته؛ ولكنه مصيري عاجلا أو آجلاً.

القدر هو الذي عجّل بالنهاية، ورسمها بهذا الشكل رغم أنها مخالفة لناموس الحياة فإنها القصاص العادل لي من جبروتك وضعفي، من قسوتك وألمي، من تمرُّدك وصبري، منك كلك عليَّ كلي.

ها هم بعد أن نظفوا قلبي منك وضعوني بين أغراضهم وحملوني إلى بيتهم، أنا البيت أعيش في بيت آخر، في ذلٍّ آخر، كرهت حياة الطاعة لابد من عمل شيء للتخلص من هؤلاء القساة الذين مزّقوا لحمك.. لن أدعهم يعبثون بي بطريقتهم الخاصة، يطفئون سجائرهم في قلبي.

لا.. لن أون لهم، إنه مصير أكثر قسوة، لا حل سوى أن أسقط من يد الصبي فأتهشم.. ألستُ مثلك لم يكتمل نموي.؟!

**

(موقع القصة العربية- مارس ٢٠١٦)

علبة من القطيفة

منذ رحيله المتوقع المفاجئ وهى تعاني الوَحْدة.. رحل الحبيب.. شريك العمر.. أربعين سنة لم يتفارقا.. لم يتخاصما.. لم تقل له غير نعم، ولم يقل لها غير نعمين.. الفترة الأخيرة انشغلت فى تمريضه.. لم تشعر بتعب رغم كبر سنِّها ووهن عظمها.. لم تشعر بملل رغم طول رقاده وكثرة متطلباته.

تتعب ابنتهما الشابة وهى لا تتعب، يسأم ابنهما الفتيِّ وهى لا تسأم.. وكيف تسأم الروح من نفسها، والحياة من حياتها؟!!

كان الأطباء يؤكدون عدم جدوى العلاج ومـــا هـــي إلا المســكِّنات والنهاية تقترب، وهي وحدها التي تجلب لهم الأمل والرجاء، وتؤكد أنه باقٍ من أجلها.

الموت المتوقع خفض جناحيه وحمله بعيدًا.. جاءت مفاجـــأة مـــرة، وصدمة قاسية وركلة من القدر لم يحسب فيها ضعف قلبها.

لم تبك ولم تصرخ، وأسرعت إلى شرفة طالما جلسا فيها ينظران إلـــى شجرة التوت، وشجرة المانجو، ففى حديقتهما شجرتان، شجرة كبيـــرة بعمر السنين ذات فروع وارفة تصدُّ الشمس وتأذن للنســـيم، وأخـــرى صغيرة بعمر الأمل لها مستقبل وثمر.

انقضى يوم، ويوم، وشهر، وشهر، وهى على حال لم تغيره.. إما في شرفتها ناظرة لحديقتها حتى الطعام تتناوله حيث هي، تبتسم أحيانا ولا يعرفون لماذا، تهز رأسها أحيانا ولا يعرفون علام؟.. ولا تقوم إلا لقضاء حاجة أو للصلاة، وتعود بمصحفها وسبحتها.. تقرأ وتقرأ، وتنظر وتنظر، وتتحسس كوب الليسون الساخن الذي وضعته ابنتها منذ دقائق وانسحبت في هدوء.

أحيانا تبقى الابنة لتسامر أمها.. فإذا بالأم هي التي تحكى لها عنه، أيامه الحلوة وعشرته الطيبة، طوله وهيبته، كلامه وحكمته، والرجال مثله قليل، حبهما الذى كان ولا يزال حديث العائلة..

كيف كان يمنحها حبًا لا يضاهى، وسعادة لا مثيل لها.. تحدثها عن أوقات كانا يتنزهان فيها على النيل، وكيف كان النيل يضحك عند رؤيتهما معا، وتحكى عن قصة هذا البيت الجميل الذى بناه لأجلها، وجعل له حديقة كرغبتها، وزرع عند بابه ياسمينة ولبلابة كلما طالت كبر حبهما.. وهنا في الجزء الخلفي زرع التوتة ورواها بكلامه عن حبيبته، فكانت تنتشي وتتفرع.

قالت لها البنت:

– أمي كل ما تقولين نعرفه، ولكن احكي شيئا لم نعرفه.. عن سر بينكما خاصة.. لمعت عينا الأم:

– سر.. أقول لك السر!

– نعم يا أمي .

- ولكن هذا لا يجوز، هو قال لا تحكي عنه فكيف أحكي أنا الآن؟!

- ولكن يا أمي هو أبي وحقي أن أعرف عنه ما لا أحد يعرفه.. وأنا أشعر أن هناك سرًّا تخفينه في تلك العلبة القطيفة التي لا يفارق مفتاحها صدرك.. ماذا في هذه العلبة يا أمي؟

- أوراق.

- وماذا في الأوراق.

- حكايات.

- عن أي شيء هذه الحكايات.

- حكايات كالتي أحكيها لكم.

- أودُّ أن أقرأها.

بعد شرود طويل قالت:

- اتركيني أفكر.

جَنَّ الليل.. وجاءها هاتفه في موعده ككل ليلة.

- هل ستحكين لها عن السر؟!!

-هي تلح كثيرا.

- لكنه سرنا لا أحد يعرفه.

- وهاأنذا لم أبح بشيء حتى الآن لكنني قد أضعف، أو قد..

- أكملي.. لماذا سكتِّ؟! قد تموتين وهذا له موعد، وعندها سيهرعون إلى العلبة القطيفة.. ستتغير حياتهم وينهدم ما بنيناه طوال السنين.. دبِّري أمرك.. لماذا أنت عاجزة عن التصرف؟!!

هبت واقفة.. وما العمل.. سأموت وسيأخذون المفتاح من صدرى.. وأول ما يهرعون إليه هو العلبة القطيفة ليعرفوا ما بها.

قامت وأخرجت علبتها.. وبدأت تقرأ.. وظلت تقرأ وتقرأ.. وتتهمر دموعها وتتهمر، أنهت قراءتها وسكن حنينها، ثم خطر لها الحل.. قامت إلى حديقتها.. حفرت في ركن مواجه لشرفتها.. جاءت بأوراق سرهما مزقتها إلى أصغر شيء، دفنتها تحت الشجرة.. ثم روتها بماء الورد.

الأيام القليلة التالية تحوّل سؤال ابنتها عن ماذا في العلبة القطيفة إلى.. لماذا تروين هذا الركن خاصة بالماء المعطر يا أمي؟!!

تنظر إليها في مودة ولا تجيب.

لما صعدت روحها وهي على حالها تنظر من شرفتها إلى ركن سرها.. نظروا حيث تشير وجدوا فرعا أخضر ينبت زهرا أبيض يحيى روحها المرفرفة فوقه.

**

عروس جينين

لعبنا صغارا.. جرينا بطول جِنين وعرضها، حواريها وأزقّتهـا، حول بيتنا وحديقتنا الوارفة بشجر زيتوننا الرومي الضارب جذوره في التاريخ، هو ماهر جدًّا بدروب جِنين، خريطتها فـي تلافيـف مخّـه، وخطوطها مرسومة على وجهه.

كم اختبأت خلف أشجار الزيتون وتكعيبة العنب، وفي كل مرة يعـرف مكاني بسهولة.. أخي مثله يعرف المكان الذي يعيش فيه شبرا شـبرا.. يعرف عدد الأشجار والأحجار.. هو أيضا يستخرجني مـن خلـف أو تحت أي مكان أختبئ فيه.

الاثنان يتفقان دائما على الإيقاع بي.. عيني تدور بينهما وهما يؤكـدان لي:

– لا يمكن أن تتخفى بعيدا عنا في هذا المستوطن الذي بنـي بـدماء الآباء، والأجداد.. عندها أسلم بعجزي وعدم قـدرتي علـى مواصـلة التخفي منهما، فينتهي اللعب ويأخذ كل منا الاتجاه إلى بيته، ولكنني في كل مرة أتشبث بابن عمي أن يأتي إلى بيتنا ويساعدني في ذلك أخـي فكلانا نحبه، ليس فقط لأنه ابن العم؛ ولكن أيضا لدماثة خلقـه وخفّـة ظلّه.

أحيانا كان يستجيب حتى لا يغضبني ويـأتي دون شـرط، وأحيانـا يضحك ويقول:

- آتي بشرط أن آكل كفتة خالتي.

أمي أحسن واحدة تصنع الكفتة، تدير ما كينة فرم اللحم كثيرا، يزعجني صوتها ويثير أعصابي، وأمي تنظر لي باستغراب وتقول:

- لم أر مثل أعصابك رهافة.

كرهت الكفتة لصوت الماكينة، وأحببتها لأنه يحبها، ويفضلها من يد أمي.

كله يهون في سبيل أن يأكل ابن عمي ورفيق صباي ما يشتهي.

تمر الأيام سريعة ونكبر فإذا بي أحجز في البيت ولا ألتقي بابن عمي إلا في بيتنا، نتناول كفتة أمي بطعمها اللذيذ، ونكيل لها المديح، ولأمي الثناء وأنها تستحق لقب حاتي جنين عن جدارة.

بعد الغداء يعرج بنا الحديث إلى أرضنا السليبة وكيف أن تحريرها فرض عين، وعلى كل واحد منا أن يقوم بدوره غير منتظر أن يبدأ الآخر.

وهنا أشعر أن نصف الكلام يغيب عن وعيي، وأن لأخي وابن عمي لغة خاصة يفهمانها وحدهما.

لا بأس فإن كف عقلي عن الاستيعاب وأذني عن السماع فلم تملَّ عيناي من ملاحظة شفاههما وأيديهما والحماس الذي يصل أحيانا حد الثورة والغضب والخبط على أي شيء أمامهما.

يوما بعد يوم لاحظت أن أخي وابن عمي يزداد حماسهما، وهما يتحدثان عن المصير، وحق العودة، وحماية القدس و.. و.. وابن عمي

يدوّن في كراسة خاصة عمليات الغدر ومرات الاعتداء وكم كانت الخسائر في حينها.

ولما سألته عن سبب ما يدوّن في كراسته قال:

- حتى لا ننسى جرائم الصهاينة بطيبة قلوبنا أنهم سفلة.

قلت له:

- ولكن هؤلاء يضربونهم بالحجارة.

غضب وهب واقفا وهو يقول:

- أتستكثرين الحجارة على أناس يحتلون وطنك؟!!

وانطلق كالسهم مارقا ولم أفلح وأخي في استعادته.

لم أفهم ما أغضبه، ولكن انصرافه بهذا الشكل حرّق قلبي، وزاد من عذابي أن أخي هو الأخر لفحني بنظرة نارية ولوى وجهه عني.. ومع ذلك ليس لي سوى أخي أستنطقه:

- لماذا يا أخي كان غضبه وغضبك؟!!

- أنت لا تحبين ديارك!!

- بل أحبها بكل قوتي.

- يبدو أن قوتك ضعيفة جدًا.. اسألي أمك أين أبوك؟

يا إلهي ماذا يريدان مني؟ ليتنا ما كبرنا وصارت لنا اهتمامات غير اللعب والركض حول جدران بيوتنا، واللهاث عند جداول مياهنا.

أخذتني الحيرة أياما.. كيف أسترضي ابن عمي الذي أصبح لا يزور بيتنا بسببي؟

ولماذا أخي أيضا يوافقه فلا يأتي به؟ ولماذا لا يقصران كلامهما على تدبير أمر زواجنا وعمل عرس كبير لي وله بدلا مما يشغلان نفسيهما به دون طائل؟!!

نزلت إلى حديقة بيتنا أحمل أحلامي، وتحت شجرة زيتون أغمضت عيني على أمنياتي أتابع بعقلي الباطن كوشة من الورد، فستان أبيض من حرير وجبير، وطرحة من التل، ويدي في يد ابن عمي وحبيب قلبي، والزفة تدق طبولا يرقص لها جسدي، وهمسات حبيبي يسحر بها قلبي وهو يقول:

– أعرف رقة أعصابك ولكن تحمّلي هذه الطبول من أجل فرحتنا، ويعلو صوت الطبول ويعلو حتى يفوق احتمالي، فأضع يدي فوق أذني وأصرخ وأصرخ، وأسرع من أمام جرّافات هائلة تجتثُّ شجراتنا، وأمي هي الأخرى تقبل عليَّ تصرخ وتصرخ:

– الجدران تهتز، البيت سيقع.. هيا اخرجي بسرعة.. تجذبني أمي من ذراعي لتلقي بي بعيدا من أمام الجرّافة التي واصلت زحفها حتى جدار البيت وخربته.

في لحظة صرنا خارج الأمان والدفء، صرنا الحماية والستر، وألمح أخي مقبلا في زي عسكري، يمنطق وسطه بحزام معلق فيه سلاح وعلى كتفه سلاح، وفوق جبينه شعار "الشهادة في سبيل الله"

ينظر إلينا في أسف وينطلق بهيئته هذه، وما أن أصبح على مرمى البصر حتى نظر خلفه، ونظرنا جميعًا خلفنا.. سقط البيت، صار حطاما، رفع أخي كتفيه آسفا وانطلق في طريقه.

لم تكن طبول العرس وموسيقى الفرح إلا هدير دبابات وألحان صواريخ وأزيز مروحيات تحمي أفعالا شائنة.

في حِضن أمي دفنت وجهي وسألتها:

- أين يذهب أخي؟!!

بمرارة وصبر وقوة وضعف قالت:

- إلى الله يا بنتي.. ارفعي رأسك.. إلى متى تظلِّين كالنعامة؟!!

رفعت أمي وجهي وأدارته عَنوةً في اتجاه المعركة، كان أخي يحارب العدو يستبسل بشجاعة لم أتوقعها، وكلما حاولت إخفاء وجهي كانت أمي تعيده صوب أخي.

المعركة عند حافة أطلال بيتنا، ولو مات العدو بكل جنوده لن يرجع البيت والشجر، نادي عليه يا أماه.

ليس أخي وحده.. ابن عمي هناك وشباب جيراننا، كلهم يواجهون بالحجارة والعصيِّ، وقليل من البنادق، والعدو مسلح بالدمار، شديد البأس، يطول على البعد، ولكن الشباب لا يهاب.. الدبابة تدير رأسها في كل اتجاه، أخي يقفز فوقها ويحطمها لكنه يسقط أمامها.. صرختُ وصرختُ، لكن أمي برباطة جأش قالت:

- ذهب ابني إلى ربه.. ذهب ليلحق بأبيه.

لم تصرخ ولم تصمت، شاهدتها تجري بسرعة تفوق قوتها، في يدها سكين، قاصدة الجندي الذي أردى أخي، فاجأته شجت وجهه، سقط وسقطت بجواره بسلاح زميله.

انتفض جسدي وانتفض، ودرت حول نفسي مذهولة لا أم لا أخ لا بيت في لحظة واحدة.. صوت الطلقات شديد جدًا.. من عجيب أنني لم أتأثر ولم أغلق أذني، ولم أغلق عيني وقلبي يزداد في دقّه وجسدي يزداد اضطرابه، أنظر إلى الشباب الذي يسقط أمامي؛ أوراق الشجر الخضراء تحصد بمنجل حقود، أنظر إلى كومة الحجارة التي كانت بيتي وخطر لي خاطر:

سأمسك بحجر وألقى به عدوًّا أصيبه وألحق بأخي وأمي.

وانحنيت أحمل حجرا، فإذا بيد تمسك يدي، وبصوت أعرفه يقول:

- ندَّخرك لما هو أهم.

لا أعرف كيف سلكنا طريقا ملتويًا أنا وابن عمي حتى جئنا إلى هذا المخبأ الذي يعج بمجموعة من البنات والشباب.. أرواحهم على أكفِّهم.. عشت معهم أياما.. شاهدت وتعلمت أضعاف سني عمري.. غاب منهم الكثير خلال تلك الأيام وجاء بدلا منهم أكثر، وفي كل يوم أعي أكثر وأعرف أكثر، والغريب أنني صرت طواقة أكثر لارتداء فستان عرسي، وتاج رأسي، ولم أخفِ رغبتي بل أعلنتها أمام الجميع.. أنكر من أنكر وصمت من صمت وأنا لا أبالي:

- أريد الزواج..!

رد أحدهم:

- أهذا وقته؟!

قال الثاني:

- ألم تنضجي بعد؟!

تقدَّم ابن عمي وحدَّق في عيني بعيني صقر وقال:

- أنا لن أتزوج.

اتسعت حدقة عيني وثبَّتهما في عينيه:

- وأنا لن أتزوج غيرك.

وهم بالكلام فوضعت يدي فوق فمه:

- ليس هنا.. أترضى أن تكون زوجي في الجنة..؟

- ماذا تقصدين.؟

- قررت أن تكون حياتي هي مهرك.. والآن قل ورائي:

"قبلت زوجك في الجنة"

كمن لا يصدِّق أذنيه:

- أنت تفعلين هذا!!

- نعم يا بن عمي.. أنا لست أقل من وفاء، وآيات، وجهاد وغيـــرهن.. لقد طلبت الشهادة أرجو أن تجهزني لها.

بارك ابن عمي رغبتي وجهزني بيديه.. يضع فوق رأسي طرحـــة التل وأنا أعدل وضعها، ويلف خصري بنطاق مرصع بالمتفجرات وأنا

أحكم قفله، ويلبسني ثوب عرسي وأنا أشمخ فيه، وظل يكمل زينتي وأنا في أعماقي أردِّد:

" أنا مارد إن غضبت.. وقد غضبت"

" أنا ثورة في شكل صمت.. كفانا صمت"

سلمت على ابن عمي ومازحته:

– لم تقل:

– قبلت زواجك في الجنة.. قال:

وهل تذهب العروس دون عريسها.. أنا معك يدا بيد.. هنا فقط لاحظت أنه يلبس بدلة العرس ويلف خصره بماسات الديناميت.

زفَّتنا البنات ودق لنا الشباب الدفوف وأوصلونا إلى أول كمين، دخل كل منا في جهة للتفتيش.

انتشيت بمنظر الصهاينة يجرون هنا وهناك ينتشلون عشرات القتلى ومئات الجرحى، وأنا وابن عمي نواصل رحلتنا إلى السماء.

**

(حواء – أكتوبر ٢٠٠٨)

نصر أكتوبر في لوحات

دخل التلميذ من باب الشقة متوجِّهًا على الفور نحو جـدِّه، ألقـى حقيبته وتعلّق برقبته وقال:

- جاء وقتك يا جدي الحبيب.

ضحك الجد وعدّل من وضع نظارته وقال:

- الآن فقط جاء وقتي، وماذا كنت أفعل طوال عمري؟!!

قال الحفيد:

- أقصد أنك كنت بطلا من أبطال نصر أكتوبر العظيم، وجاء وقتـك لأنّ مدرس الرسم طلب من كل تلميذ رسم لوحة معبِّرة عـن الحـدث العظيم.

قال الجد وعلامات الجد على وجهه:

- فعلا جاء وقتي.. ولكن أتريد لوحة واحدة فقط؟!!

- بالفعل يا جدي لوحة واحدة لا تكفي، ولكن أريدك أن تتخيـر لـي مشهدا من مشاهد هذا النصر الكبير، فأنا أتمنى أن تكون لوحتي هـي أكثر لوحة تعبر عن أكتوبر ٧٣ وما حدث فيه من منجزات.

قال الجد:

– هذا جميل سوف أحكي لك بعض المشاهد وأنت تتخير المشهد الذي تحب أن تسجله.. فلنختر مثلا لوحة الطائرات المصرية وهي تعبر قناة السويس.

– لا يا جدي، هذه اللوحة عادية وقد رسمها كثير من الطلبة.

– لا ليست عادية حتى لو رسمها ألف طالب.

– كيف ذلك.؟

– من يستطع أن يرسم أو يتخيل إقلاع أكثر من مائتي طائرة مختلفة الأنواع، والسرعات، والتسليح من قواعد ومطارات متعددة ومتباعدة على امتداد الجمهورية، وهذه الطائرات قامت في مجموعات من ثماني إلى اثنتي عشرة طائرة، لتطير من أماكنها في أوقات مختلفة وتصل جميعها في وقت واحد، وتتجمع على ارتفاعات منخفضة جدا حتى لا تلتقطها ردارات العدو الصهيوني، ثم تتجه كل هذه المجموعات إلى منطقة قناة السويس، وتعبرها الساعة الثانية إلا خمس دقائق ثم تأخذ كل مجموعة اتجاهها نحو أهدافها في عمق سيناء على امتداد مائة وستين كيلو مترا، وتصل كل المجموعات إلى أهدافها في وقت واحد، وتوجه ضربتها المفاجئة على مواقع العدو الحيوية والتي يدافع عنها بأحدث المدفعيات المضادة للطائرات، وبانتهاء مَهمَّتها تعود كل هذه الطائرات وبلا خسائر تقريبا وتتجه كل مجموعة إلى القاعدة التي خرجت منها.

ضمَّ التلميذ فمه وكان فاغرا طوال الوقت ثم احتضن جدَّه وهو يقول:

-ياااه يا جدي أنت تحتفظ بكل هذه التفاصيل في ذاكرتك حتى الآن!!

- نعم يا ولدي، إنها محفورة في رأسي.

- فعلا يا جدي هذه لوحة بديعة في الواقع لكنني أخشى ألا أرسمها بدقة تعبر عن كل هذه المعاني الخطيرة.

قال الجد:

- أصعب ما في هذه اللوحة أنك ترسم جميع الطائرات في اتجاه واحد ذاهبة أو عائدة.

- ولكن يا جدِّي أريد أن أصوِّر فرحة البشر.. الجنود وهم يرفعون أعلام النصر ويكبّرون.. فرحة الجنود بنجاح الضربة الجوية التي كانت مفتاحا للنصر، وسببا لارتفاع معنوياتهم.

قاطعه الجد قائلا:

- الصورة هنا ستعتمد على نظرة العين وتعبير الوجه، وهذا صعب جدا لأنك بذلك تجعل الجنود كالتماثيل، وهو ما يتنافى مع الحركة التي تعطي الحياة للصورة.

- وما العمل يا جدي؟!!

فكّر الجد وقال:

- إذًا ارسم لوحة أخرى ولتكن التمهيد النيراني للمدفعية.

– نعم يا جدي هذا الذي بدأ بعد الضربة الجوية.. احك لي ماذا حـــدث في التمهيد النيراني؟

اعتدل الجد وقال:

– انطلقت النيران من فوهات أكثر من ألفي مدفع على طـــول الجبهـــة من أعيرة مختلفة وأنواع متعددة تدعمها الصـــواريخ التكتيكيـــة أرض أرض لمدة ثلاث وخمسين دقيقة متواصلة، تطلق عدة قصـــفات علـــى مواقع العدو الغاشم، ونقطِهِ الحصينة الأمامية، ثم تنتقل النيـــران إلـــى أهداف العدو في المواضع الخلفية وتعود مرة أخـــرى علـــى مواقعـــه الأمامية، ثم تصمت لعدة ثوان.

– بالطبع ظن العدو أن التمهيد النيراني قد انتهى؟

– تمام يا ولدي هذا ما حدث.. وبدأ جنود العدو يخرجون من ملاجئهم ليحتلوا أماكنهم على الساتر الترابي بالضفة الشرقية.. وفوجئوا بقصفة نيران أخرى أحدثت أكبر الخسائر في الأفراد والمعدات.

تخيل يا حفيدي العزيز مدى التأثير الذي أحدثه سقوط أكثر من عشرة آلاف دانة مدفعية في الدقيقة الأولى فـــوق أهـــداف العـــدو البعيـــدة، والقريبة.

صفق الحفيد فرحا:

– عشرة آلاف دانة مدفعية!!، إنه شيء رائع بالفعل، وأروع مـــا فيـــه تصوير مدى الرعب على وجه الجندي الإسرائيلي.

ثم فكر قليلا وقال:

– ولكني أريد تصوير الفرحة في عيني الجندي المصري.

قال الجد:

– إذًا عليك برسم المرحلة الثالثة.

– تقصد دور القوات المكلفة باقتحام خط بارليف.

– نعم .

– لقد رأينا هذا المشهد مرارا في التليفزيون.

– وكيف لمشهد تليفزيوني من جانب أن ينقل مدى البراعة التي عليها الجندي في تلك اللحظة.

– لقد شوقتني يا جدي أن أسمع منك .

– إذًا اسمع، لقد انطلقت قوات المشاة والصاعقة والمهندسين العسكريين فاحتلت زوارقها المطاطية والخشبية لتعبر القناة تحمل المرحلة الأولى لقوات الاقتحام ثمانية آلاف مقاتل.

– نعم يا جدي رأيت في التليفزيون الجنود البواسل يتسلّقون الساتر الترابي بالوسائل المبتكرة، وسلالم من حبال، وتتوالى موجات من البشر كل عشرين دقيقة حتى أصبح لقواتنا عند غروب الشمس أكثر من ثلاثين ألف مقاتل.

قال الجـــد:

– وبينما رجال المشاة يقتحمون النقط الحصينة بخط بـــارليف هنـــاك لوحة أخرى ترسم وهي انطـــلاق عناصـــر الصـــاعقة، ومجموعـــات اقتناص الدبابات المسلحة بالصواريخ المضادة للدبابات إلى عمق العدو لتدمير نقطِهِ الحصينة المعادية، بينمـــا قامـــت عناصـــر المهندســـين العسكريين بإقامة المعديات والكباري حتى صار في الســـاعة الثامنـــة والنصف أكثر من ثلاثين معدية مع الانتهاء من بناء أول كوبري.

صاح الحفيد فجأة:

– الله أكبر.

قال الجد :

– وهذا ما حدث.. جميع الجنود في مختلف المواقع صـــاحوا فـــي آن واحد الله أكبر.. صيحة مقيدة من الله.. سبحانه أطلقها على ألسنتهم في وقت واحد..

شرد الحفيد قليلا فعاجله الجد:

– يبدو أنك توصلت إلى اللوحة التي في خيالك؟

– لا يا جدي.. بل فكرت في رسم ثلاث لوحات مع بعض التفصيلات تكمل إحداها الأخرى وأضعهم في تسلسل ليس داخل المدرســـة؛ بـــل على جدارها الخارجي.. وسأدعو كل الزملاء للاشتراك معي في رسم هذه اللوحة الجدارية ليضع كل منهم فيها مشـــاعره فتـــأتي اللوحـــات متناغمة كما كانت المعركة متناغمة.

وضع الجد يده على كتف حفيده وقال:

- ولا تنس حفيدي العزيز أن ترسم في وسط اللوحة علم مصر مرفوعا وحوله الجنود البواسل يهتفون.. الله أكبر.. الله أكبر.

**

(حواء - ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٥)

(موقع القصة العربية- ١٥ديسمبر٢٠٠٨)

هكذا يديرونها

نام فحلم باجتماع التجار الكبار للطماطم والخضراوات، في الساحة المتهدمة بجوار بيته أضاؤوا الكلوبات، وتحلقوا حولها يتفقون فيما بينهم على كلمة سواء في أمر سعر الغذاء، ومصير العباد منهم والعائش بالكاد وقرروا الآتي:

رفع السعر أربعة أضعاف فقط رحمة بمحدودي الدخل.

على الجانب الآخر من الخرابة المواجهة لبيته رأى عمال أنابيب البوتاجاز كل واحد منهم يضطجع على حجر، أضاؤوا الفوانيس وأخذوا يتباحثون في أمر سعر الأسطوانة، وضرورة وضع تسعيرة بحسب الأدوار فلا يتساوى من يسكن الدور الأول بمن يسكن الدور العاشر.. نظرية الرأفة مع الأدوار الدنيا.

في الصباح بينما كان يحلق ذقنه ويدندن، وسؤال حائر بداخله لماذا الموس تلم وهو جديد؟! اقتحم أذنه صوت البائع ينادى مجنونة يا طماطم، قال لنفسه: لم يكن حلما إذاً!!

كان يرتدى ملابسه ويصفِّر استعدادا للخروج، وداخله يتساءل عن سرِّ تهرُّؤ الأساور والياقات رغم قرب عهدها، وحين سمع مناوشات امرأته مع عامل الأنابيب الذى لم يطق جدل الزبائن فحمل الأسطوانة

واستدار بها عائدا، وهو يرغى ويزبد: زبائن الهم.. قال: اللهم اجعله خيرا.

نام فحلم أن رؤساء تحرير الصحف يلتفُّون في الساحة المظلمة ذاتها حيث كان اجتماع تجار الطماطم، أضاؤوا الشموع، يقرؤون بعناية الفاكسات والمنشورات السرية التي وصلت للتوِّ من الأعلى لتدلَّهم على التوجه العام للمرحلة المقبلة وهم يهُزون رؤوسهم فاهمين، ويرفعون أذرعهم موافقة.

على الجانب الآخر من الخرابة كان رؤساء مجالس الإدارات، أضاؤوا الثريات وأمسك كل منهم بكأسه، يترعون متلذذين بنتيجة مباحثاتهم في أمر الترقيات وضرورة أن تذهب لمستحقيها وهم المشاغبون، وأصحاب الصوت العالي، فلابد من مكافأة المشاكس حتى لا يُقلق الآخرين، فينتظم سير العمل.

في الطريق إلى عمله وهو يعاني من كالو أحذية الجلد الصناعي، توقف عند بائع الصحف يتصفح المانشيتات:

"دول العدو صارت صديقة، يدفعون بسخاء في منشآتنا المستهلكة"، قال في نفسه: نحن أيضا نبيع بسخاء، أكمل قراءة العناوين:

"مساواة في الميراث بين الذكر والأنثى، سفر الزوجة بدون إذن الزوج، إعادة النظر في أحاديث أبى هريرة، وارتفاع صوت الأذان بالميكرفون، الضرب على يد الإرهاب بالإرهاب المضاد.. قال لنفسه:

– لم يكن حلمًا إذن.

أكمل طريقه، طالعه وجه ساعي المصلحة، فاجأه قائلا:

- لا تحزن يا أستاذ لم يرد اسمك في كشف الترقيات، أكمل الساعي:

- حضرتك طيب أكثر من اللزوم، قال: اللهم اجعله خيرا.

قرر أن يفعل شيئًا، فما يحدث ليس حلمًا لا بد من التعبير عن معاناته، لا بد أن يرفض الغلاء، لا بد أن يرجع حقه في الترقية، لا بد أن يرفض التدخل في توجهاته، وتحريض زوجته عليه، والاعتداء على المبشرين بالجنة لا بد من تغيير المنكر باليد.. اقتحم مكتب المسؤول قام أحدهم يفصل بين المتعاركين، تنحَّى به جانبا وهمس في أذنه: «وأطيعوا أولى الأمر منكم» ناوله بقبضته في أنفه قائلا:

- وأين الله والرسول يا غبى؟!

قال الرجل وهو يمسك بأنفه:

- اللهم اجعله خيرا.

**

(القاهرة في ٢٠٠١)

مناورة

توقف المترو ونزل بعض الركاب، وركب جميع من كان واقفًا بالمحطه ولم تركب هي، مر كالسهم من أمامها، حيَّاها، لا تعرف من أين أتى ولكن بدلته تدل على أنه ضمن فرقه ما؛ جيش.. طيران.. أمن نظامي، اعتقدتْ أنه مفتش بالمحطة ولذلك ردت عليه التحية.
تقدم قليلا واستدار ووقف ينظر إليها ثم عاد من خلفها إلى الجهة الأخرى.. شكّت في أمره.

بدأ الناس يتوافدون على المحطة من جديد، وجاء القطار التالي، وركب ناس وغادر آخرون وبقيت هي وهو من جديد.
شجعه استمرار وقوفها على أن يدعوها لأن تتبعه بإشارة واضحة، ولما لم تفعل عاد إليها مرة أخرى، ووقف إلى جوارها وأطلق تنهيدة.
تركت له المكان وتقدَّمت بخطوات متَّئدة حتى المقعد الرخامي وجلست.

جلس على ذات المقعد من الجهة الأخرى حتى صار ظهره إلى ظهرها يفصلهما المسند المشترك للمقعد.
تكلم.. نهضت وعادت إلى مكانها الأول.. وبدأت هي الأخرى تتنهّد ولكن من الملل.. قام وصعد السلم.. مشى فوق الكوبري الذى يعلو

اتِّجاهَي القطارين وهو يشير إليها أن تلحق به.. أدارت وجهها بعيدا عنه.. نزل في الجهة الأخرى وأصبح في مواجهتها تماما.. يفصلهما ممر القطارين الرائح والغادي.. جاء أحد القطارين فحجب رؤيته عنها وامتلأ الرصيف بالركاب المغادرين.. تحرك القطار يجرُّ عرباته العديدة فلما غادرت آخر عربة ظهر أمامها مرة أخرى.. اطمأن لوجودها وتشجع أكثر على ألا يستسلم.

لم تستطع أن تمنع انفراج شفتيها عن ابتسامة ساخرة من تلك التصرفات البهلوانية.. ابتسامتها شجعته فصعد السلم ومشى فوق الكوبري عائدا إليها، كان ينزل السلم بتؤدة، ويتقدم نحوها في تبختُر، وهى تتأمله هذه المرة بفضول أكثر، وقف من جديد إلى جوارها.. واجهها بوضوح هذه المرة قائلا:

- يكفي هذا.. هيا نخرج من هنا..

مشت من أمامه.. عادت إلى مقعدها.. ظل واقفًا مكانه عاقدا ذراعيه خلف ظهره وقد نفد صبره..

صعد السلم غاضبا هذه المرة، ومشى فوق الكوبري يدق حديده بعصبية بادية.. نزل إلى الجهة الأخرى وجلس على المقعد المواجه لها بعظمة زائدة عن الحد واضعا ساقا فوق الأخرى، وتظاهر بعدم المبالاة.

استمر الحال وقتا ليس بالقليل، حينما بدأ يتحرك منصرفا تحركت هي الأخرى، انتشى وعاد إليه الأمل أكثر عندما رآها تصعد السلم وتمشي فوق الكوبري مبتسمة ومتجهة نحوه، تنزل السلم وتقترب منه وابتسامتها تتزايد.

لكنها تخطته فسار خلفها، فهذه أصول اللعبة.. فوجئ بها تسلم على صديقتها وتقول لها:

- تأخّرت عليَّ كثيرا.

اتجهت الصديقتان ناحية باب الخروج وهو في إثرهما.. قبل أن تدلف من البوابة الدائرة التفتت إليه وقالت:

- أعتقد أنه يجب أن تتأسف.

**

(القاهرة في ٢٠٠٢)

ليته لم يقل لي

الحب أجمل ما في الدنيا.. كنت سأظل أبحث عنك طوال العمر، ألا نسعد بأن التقينا.. بأن جاء الحب من الطرفين.. لماذا تفكِّرين في الهروب.. قاسية أنت يا حبيبتي على نفسك وعليَّ.. أخشى قسوتك.. تهدِّدينني دائما بالهجر.. أشعر بهبوط في قلبي كلما تفوهتِ بها.. لا أثق في استمرار حبك.. ضنين قلبك.. دائما يتوهَّم ما يساعده على الفرار.

وقلتَ:

أبحث عنك خلال السنين.. أتعقب عينيك في الليالي المقمرة، وفي المعتمة الموحية.. في ظلال الشجر وصفحة الغدير.. في مسافات السفر الطويل، وبلاد الفرنجة.. وبين أوراق كتبي.. أقرؤك.. أتشرَّبك.. أدَّخر نفسي لك.. حنيني وأشواقي.

وقلتَ :

زغرد قلبي عند رؤيتك.. عزف لحن اللقاء، فإذا بك تهوين الترحال.. تهوين زرع القلوب على الشواطئ، والتلويح لها بالأيدي مودعة.. أحاول أن أطيل اللحظة، لحظة الوداع مفزعة نجملها بعبارة إلى لقاء.. وسؤالي الملح لماذا الوداع..؟ لماذا..؟ ولا جواب.

وقلتَ :

نتعاهد ألا نفترق.. أعدك بسعادة ووصال.. بمثول على عتبتك.. لك ما تبقى لي من العمر.. عديني أن تبقَيْ معي بقية العمر.

وعدتك

تكسر عنادي أمام إصرارك.. أسدلتُ يديَّ الملوحتين بوداع كما تقول.. أنمتهما بين راحتيك.. أطبقتُ جفني على صورتك.. طبعتها في ذاكرتي.. رسمتها على شغاف قلبي.. أسلتها بين عروقي.. رويت بها خلاياي العطشى.

و.. نبتت في قلبي زهرة عباد الشمس.. تتهدَّل حين تبتعد، تتفتَّح عندما يهل سَناك.. أحببتك.. وفضحتْني عيناي.. أسعدني بوحهما.. التففت بثوب الحب.. ثوب جريء يلقي بكل المحظورات ولا يهاب عيونَها.. طغت فرحة القلب على الوجنتين.. لهيبهما محبَّب.. وشع من العينين.

انتفضت عيون كثيرة من حولي.. دغدغها خدر الوهم.. لا بأس.. فليحب الجميع.. سحقا لأيام البلادة والخمول.. أمرني الحب أن آتي إليه طوعًا أو كرهًا.. رددت أنا وقلبي.. أتينا طائعين.

وصلك خطاب العمل في مكان بعيد.. رحلت وفي عينيك لهفة.. تتثلج أطرافك كلما اقترب موعد السفر.. أنت الآن ترحل.

- أتتركني.!!

- لن أبدأ يومي إلا بسماع صوتك.

عشقت رنين الهاتف.. ينقل صوتك الحنون.

- أحبكِ كثيرا.. كم أوحشتني!

- رقيق جدًا يا حبيبي.. إنها نقطة ضعفي.

- وضعفي أنا أيضا.

باقي اليوم لا ينتهي حواري مع الهاتف.. في نظراتي إليه مودة.. كأنه بعض منك.. أرى صورتك من خلاله.. ألقي إليه بالتحية.. أستأذنه.. أدعوه لطعامي.. وسيط القلبين هو.. أنام في جواره.. يمنحني دفء الأمان.. أغمض عيني نشوانة.. أفتحهما على الرنين.

- أمنية.. صباح الخير.

صباح الزهور.. كل العطور.. صباح الحب.. أحقًا هذا اسمي.. كيف حولته في فمك إلى نغم؟!!

- حلمت بك.. متى يتحقق الحلم؟!

- الحقيقة أجمل من الحلم.

مرات قليلة تقع الآلة النابضة في الحرج.. عندما تطيل الصمت.. تتحمّل عتابي.. تأسف لدموعي.. يغلبني الشوق، تسمعني أناديك.

«أين أنت يا حبيبي؟! طال انتظارك.. ألم أخطر في خاطرك؟! يا رب ضع يده فوق القرص.. حرك أصابعه بأرقامي»

- يا الله.. هذا رنينه.. يتناغم مع رنين قلبي.

- ألو

- معك عمر.

- الدنيا كلها معي إذًا.. هل نسيتني؟

- لم أنس.. ولا أقوى، ولا أريد.

- انتظرتك طويلا.. الانتظار نار في نار.

- أرغب في اشتعالها على الدوام.. أزكّيها في قلبي صباح مساء.

أغزل من كلماتك عقود نور لجبينك.. أغانٍ تعزفها أوتاري إلى أذنيك .. اسمع ماذا يقول قلبي عنك:

- حلوة.

- فقط حلوة.. كأنني لست راويتها.. كأنك لست ملهمها.. ألا تدرى كم يكلّفني تجسيدها؟! الانشغال الدائم.. أنحتها من أعصابي أخضبها بدمائي.. أزكيها بأنفاسي.

أشعر بفتوره.. ينكمش عتابي في قلبي.. بداخلي موج يطوي الزبد، ويبقى السطح صافيًا رائقًا كما أريده.

ممتنَّة لك بهذا الحب.. أخلصه من أوراقه الجافة والصفراء، أعرضه للشمس، تُنبتُ له أوراقًا طفلة، خضراء لامعة، وطرية.

يا لفرحة قلبي بك.. أقبلك هاتفي الوفي.. نقلت إليّ أسعد خبر ينتظره قلبي.. سيعود غدًا.. يحمل لي مفاجأة سارة.. لم تَنَمْ عيناي حتى أمسكت يداي بمفاجأتك الرائعة.. مذكراتك.

كم هو رائع أن تدوّن حبك لي يومًا بيوم.. على بالك دائمًا.. في ذهنك وبين أوراقك.. سعادتي غمرت ما تقرؤه عيناي.. ولكن الواقع بدّدها.. ماذا أقرأ.. يومياتي أنا، أم يومياتك أنت.. مشاعري أنا أم مشاعرك أنت؟

– صرنا اثنين في واحد.

– تحصي عليَّ أنفاسي.. تسجِّل خطراتي.. كلماتي.. وأين أنت!!

أين كل ما قلتَ سابقا؟! لم أر منه حرفًا!.. أين خلجاتك أنت.. كلماتك أنت.. مشاعرك أنت؟!

– أنتِ أقرب إليَّ من نفسي.

– لا.. بل يأبى كبرياؤك أن يدوِّن على نفسه إدانة؛ حتى يسهل عليه الانسحاب متى أردت.

– ليس صحيحا.. كم كنت أناجيك!

– لقد كنت تناجيني في غيبة قلبك، فلم تظهر له بصمة على قلمك.

– أعدك أن أكتب ما يرضيك.

– لا تعدني بشيء يحيِّرك فعله.. يكفيني حيرة قلبي وما يعانيه.. أيفرح بما اقتنص في غفلة الزمن من سعادة زائفة.. أم يتنهّد قائلا:

– ليته لم يقل لي كل ما قال.

**

(القاهرة في ٢٠٠٧)

عصفور العسل

وقفتْ مبهورة أمام فاترينة الزهور.. ولسان حالها يردِّد:

"سبحان الله.. ما أروعه من بوكيه.. لم أر في حياتي مثل هذا الورد لونًا وتنسيقًا.. أما زال في الكون جمال لا نعرف عنه شيئًا، هذا يا ربي في الدنيا، هذا عين رأت، فكيف بالجنة وما فيها، حتى العصفور الذي ينقر من رحيق الزهر كأنه حقيقي، كأنه يتحرَّك".

من خلف الزجاج كان يراقبها عامل المحل.. تابع انبهارها، ثم خرج لها في الوقت المناسب.

- هذا البوكيه سينيه؛ يعني وحيد.. صنعه أشهر منسِّقي الورود في اليابان.. وروده نادرة مجمَّعة من عدَّة بلاد، ومجففة بطريقة التحنيط عند الفراعنة، حتى صار كما تَرَيْنَ تحفة ما مثلها.. اشتراه صاحب المحل بالمزاد وكان ينافس عليه كثير من هواة الزهور في العالم.

كانت تستمع إليه بانبهار كبير ودهشة أكثر.. وقالت:

- صراحة لا أستطيع وصفه، إنه أكثر من رائع.. لابد أنه دفع فيه مبلغا كبيرا.!!

- ليس كبيرا جدًّا.. ثلاثة آلاف فقط، على كل حال صاحب المحل قرَّر ألا يبيعه إلا بثمنه؛ لذلك قال:

- دعه يزين المحل ليجذب العيون؛ فلن يقدره أو يقدر على ثمنه أحد.. لكن يبدو أن لك ذوقًا رفيعًا.

– وما قصة العصفور هذا الذي ينقر في قلب الزهرة.. أخاله يتحرّك.

ضحك العامل.. وقال:

– هو لا ينقر.. هو يشرب من رحيقها، ولو نظرت من خلفه سترين، كأنه يخرج لنا عسلاً مصفًّى، تفضّلي.. تفضّلي بالداخل لترَيْ صدق كلامي.

دخلت المحل ورأت ما لا يصدَّق، العصفور منقاره يشرب من زهرة ويخرج منه عسلاً في قلب زهرة أخرى.. قالت:

– هل هذا خداع بصريٌّ.. إنني مذهولة من المنظر.

ضحك الشاب، وقال:

– أقول لك السر، هو يضع في قلب الورد موتورًا صغيرًا يحدث ذبذبة تمنح الحياة.

فعلا هذا الصانع بارع جدًّا لم ينس شيئًا، يبدو أنه أراد أن يفعل شيئا مكتملاً.. ولكن كيف عرفت كل هذه المعلومات؟!

– مع البوكيه كتالوج يشرح معاناة الصانع وخطوات العمل.

– زادت دهشتها وظلّت فترة تنظر للورد ورعشة العصفور، ثم جَذَبها الفضول لتمدَّ يدها وتلمس الوردة وتربّت على ظهر العصفور، وما كادت يدها تمتدُّ حتى اصطدمت بشيء أطاح بها نحو العصفور فأطاحته، وتناثرت بعض الوريقات هنا وهناك..

شهق العامل وأمسك فمه واتّسعت عيناه ذعرًا، فاستدارت نحوه بعيون متسائلة ما العمل؟!! ثم تمكّن صوتها من الخروج فقالت:

- أيمكنك إصلاحه.

- كيف أصلحه.. لقد تسبَّبتِ في قطع عيشي.. بل بسجني.. من أين لي بدفع ثمنه، أنا العامل البسيط الغلبان صاحب العيال.. ما العمل يا ربي في هذه المصيبة.. لقد أخطأت حين أدخلتك المحل وظللت أشرح لك.. لما رأيتك منبهرة بالبوكيه أردت أن أزيد فرحتك من طيبة قلبي، فكان جزائي السجن والتشرُّد والجوع أنا وعيالي.. يا للمصيبة الكبرى.

- هوِّن عليك، يمكنني دفع الثلاثة آلاف جنيه وأخذ البوكيه، فهو ما زال رائعًا.

- جنيه.؟!! من قال ثلاث آلاف جنيه؟

- أنت.

- يبدو أنني أخطأت.. قصدت ثلاثة آلاف دولار.

- يا خبر! إنه مبلغ كبير لا يمكنني دفعه.

نظر العامل إلى يدها ورقبتها وقال:

- كم تساوي هذه الأسورة وذلك العقد:

شهقت:

- الأسورة.. العقد.. إنهما شبكتي ولا يمكنني التفريط فيهما.

- لم أقصد بيعهما.. دعيهما رهنًا حتى تحضري المبلغ.. هذا إذا كنت لا تريدين تشريد أطفالي وقفل بيتي.

تملَّكتها الحيرة:

"ماذا أفعل.. الولد مؤدَّب ويتكلم حتى الآن بالحسني بل ويستدرُّ عطفي.. من أدراني بردِّ فعله إذا رفضتُ طلبه، ربما يهينني ويطلب لي البوليس، وربما يدَّعي بأنني أفسدته البوكيه متعمدة".

لم تجد بدًّا من خلع العقد من رقبتها ونزع الأسورة من يدها.. وقبل أن تناولهما له قالت:

– من أدراني أنك سترُدُّهما لي؟

– أكتب لك إيصالاً بمواصفاتهما.. وهل يعقل أن أتصرف بنذالة بعد أن حميتِ بيتي من الضياع.

أخذ الذهب وناولها البوكيه مع وصاياه لها:

حافظي عليه، يجب ألا يصطدم بأي شيء، فكما رأيت ينفرط سريعا باللمس.

هزّت رأسها واستدارت حاضنة البوكيه، ودمعة معلّقة في عينيها، ما أن ابتعدت قليلا حتى سقطت وانهمرت.

نظرت للبوكيه في يدها فلم تجده بذلك الجمال الأخاذ الذي كان عليه، هو ورد مجفَّف لوَّنه صانعه بألوان مبتكرة ووضع فيه حيلة تخدع البصر قبل أن تسرَّه، يا له الإنسان من فضولي قميء.. ليتني ما دخلت المحل، ليتني لم أقف أمام الفاترينة أصلا، ألم أقل في الصباح: اللهم اكفني شر هذا اليوم وشر ما فيه.

كادت تسقط على وجهها مصطدمة بأقفاص نشرت عليها جرائد اليوم وجلست خلفها امرأة بدينة تبيعها.. نظرت لها المرأة وقالت:

- الحمد لله لم تقعي.

- بل وقعت يا خالة.

أدركت المرأة أن الفتاة في كرب وأكد لها ذلك اغرورواق عينيها.. فقالت:

- (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) يا ابنتي.

- يبدو أنك حكيمة يا خالة.

- الزمن يعلّم الناس.. قد يفاديك الله ببعض المال من شر كبير.. ربنا يسلِّم طريقك يا ابنتي.. ما هذا الورد الجميل الذي معك؟

نظرت الفتاة للورد مليًّا وقالت:

- هذا الذي افتداني به الله من شر كبير.. خذيه يا خالة.

- ماذا أفعل به يا ابنتي؟ ما لنا وللورد؟!

- خذيه.. أنا لا أريده.

تركت لها البوكيه وانصرفت.. ابتسمت المرأة ومدّت يدها تخرج الورد عودًا عودًا وتخبط به على الجرائد فتتفرط أوراقه وتتطاير متناثرة حولها.. شاهدت الفتاة المشهد من بعيد.. مسحت عينيها وضحكت.

**

(القاهرة: ١٩/ ٢/ ٢٠١٦)

الخاتم

أخذ يراقبني باهتمام حتى تنبَّه الجيران، الأحباب منهم والأعـداء، والحاضر أعلم الغائبَ همسًا، حتى وصل الهمس إلى أذن أمي فجاءت تسألني في هدوء وثقة.

– هل أنت على علاقة بسامي؟

– من سامي يا أمي؟

الجار الجديد في الشقة المقابلة.

– وهل طنط فاطمة عزّلت؟

– هي عمّته، وهو ضيف، والحال سيطول، والناس تكلّمت.

– تذكرت يا أمي!! لقد لاحظته عابرًا لا أكاد أميِّـز ملامحـه، ولـم أعرف من أي شقة هو، ولم أتذكره لأسأل من هو.

صدَّقتني أمي فبهذه الصراحة نتحاور دائمًا، الحمد لله الثقة بيننـا لا يشوبها شائبة حتى الآن.. وبدأتُ أحسُّ بهذا العابر، أو هذا الضيف عند عمته، فقد رأيته عدة مرات ولم أعره انتباهًا، تقريبـا مواعيـد عملنـا متفقة فأراه في الصباح أمام بابَيْ شقَّتينا، حيث يلقي أحدنا بالتحية على الآخر وينصرف كل إلى حال سبيله ولا أكثر، وغالبًا ما ينتظـر هـو مكانه حتى أغادر أنا البيت قبله.

وبدأتُ أنتبه لهذا الشاب واكتشفت بالفعل أن تصرفاته غير طبيعية، لا تدل على أنه إنسان ناضج قد أنهى دراسته، ويمارس عملا ذا قيمة، ففي الصباح يفتح باب شقته بعدما أفتح أنا بابي بالضبط، تَكرار هذا يؤكد تبييت النية والقصد، يلقي بتحيته وينتظر إلى أن أغادر البيت ويتبعني خفية حتى أصل إلى مقر عملي.

كانت التفاتتي المفاجئة هي المفتاح الذي حل لي اللغز، لغز الغمز واللمز، والقيل والقال، لم يكن يتوقَّع رؤيتي له، فطوال المدة السابقة لم يرني ألتفتُ مما جعله يدع الحذر ولا يخشى قرب المسافة.

رأيته فبدا عليه الحرج وحاول الهرب.. ناديته.. وقف مكانه، واقترب على استحياء، بادرته بالسلام ثم خاطبته بلهجة رقيقة ولكنها آمرة أن يرجع عن تلك التصرفات؛ فهي لا تليق به، وقد سبَّبت لي المتاعب.

اعتذر في رقَّة ووعدني ألا يعود إلى مثلها، ولكنه أصرَّ أن يبرِّر لي أسباب تصرفاته حتى لا أتَّهمه بالسفه، وقبل أن آذن له أخذ يسرد تفاصيل إعجابه بي، وما أصابه منذ أن رآني أول مرة ورغم أنه يقترب من الثلاثين، ويشغل منصبا مرموقًا ويبدو ناجحا في عمله، فإن طباع الريف ما زالت مسيطرة على تفكيره، فهو يخشى أن يفاتح والده في أمر زواجه من فتاه اختارها وأحبها، وهو الذي أعد له ابنة أخيه، وقد خطبها له بالفعل وقرأ الفاتحة دون أن يستشيره في الأمر.

كنت أسمع كلامًا غريبًا ما تخيَّلت أنه لا يزال يمارس في العائلات الريفية رغم أنهم يعلِّمون أولادهم حتى الجامعات، ورضخ الشاب

العصري المتعلِّم الموظف لرغبة والده، واكتفى بالنظر إلى من يهواها من بعيد..

نصحته بطاعة والده ورجوته أن يرحم سمعتي من ألسنة الناس وانصرف بعد أن ازداد ارتباكًا من كثرة ما قدَّم من اعتذارات.

نفّذ سامي وعده، وما عدت أراه.

وما صرت أنا كما كنت، فقد تغيّر فيَّ شيء، إحساس جديد سيطر علي، أشعر بشوق لرؤيته، تمنَّيت ذلك بإلحاح، ولكن أين هو؟! اختفى تمامًا من أمامي، ترك بيت عمته لا أدري إلى أين ولماذا، وتمنيت أشياء كثيرة، وحلمت كثيرًا، ويبدو أن الله استجاب لرجائي حين فوجئت بعمته تدعوني إلى زيارتها لأمر مهم.

ذهبت إليها وكلي أمل أن أعرف شيئًا عن أخباره، وعرفت أكثر، مما أريد أو أتوقع؛ عرفت ما أصابه من جرّاء بُعده عني، عرفت حبًّا عظيمًا يحمله لي، عرفت إصراره الشديد على مواجهة والده وعمه وابنة عمه وكل العالم من أجل الارتباط بي.

كنت أستمع مذهولة ومنتشية في آن واحد، ثم سألتني عمته:

– هل ستقبلين به إذا تقدّم؟! وهل ستتحملين معه عادات عفا عليها الزمن لكنها موجودة؟!

لم أحر جوابًا، عقدت الفرحة لساني، فلزمت الصمت، وتملَّكني الخجل، ولكنها فهمت، فلا يزال السكوت علامة الرضا، وربما سمعت ضربات قلبي، فقالت:

- مبروك سامي ابن حلال إنسان ملتزم ومكافح ويقدر المسؤولية، أسرعت من أمامها هربًا بعيني حتى لا تبوحا بالمزيد، وتركتها تكمل صفاته التي تتمناها كل بنت.

أخبرت أمي بنتيجة المقابلة، وأنه ليس عندي مانع من الارتباط به، ومرت فترة لا أذكر طولها وأنا بين الأمل واللهفة كتلميذ يتلهّف على إعلان نتيجة امتحانه، وطال انتظاره فتطرق اليأس إلى النفس.

وذات يوم كنت أهبط الدرج أجرُّ ببطء وتثقل رأسي الهموم، إذا به واقف أمامي، كانت فرحته تسبق كلماته وتشعُّ البهجة من عينيه، وتلوِّن البسمة شفتيه، وترقُّ النغمة على أوتار صوته، ما رأيت من قبلُ كل هذه البراءة في عين، ولا كل هذا الحنان في قلب، رآني فكأنه وجد دينه وهداه، هتف:

- ليلى.. حبيبتي، انتهت المشكلة أخيرا، استطعت إقناع والدي بزواجنا، وافق وهو يريد مقابلة والدك، هيا لا تضيعي الوقت، هل والدك موجود لأحدّد معه موعدا؟.. أريد أن أخطفك منه، ولن أنتظر ردَّه.. وجذبني من يدي وهو يواصل كلامه قائلا:

- سأضع هنا خاتم زواجنا.

وفجأة تغيَّر كل هذا، توقَّفت الكلمات في حلقه، وانطفأت لمعة عينيه وقد تسمَّرتا على يديَّ، تاهت لهفته واحتلَّت أمارات الحزن والدهشة صفحة وجهه.

حاولت أن أبتلع غصّتي وأسأله ماذا حدث، فلم أستطع، ترك يدي في هدوء وهو يتمتم مختنقًا يبدو أنني وصلت متأخرًا، مبروك يا ليلى ألف مبروك.

عاد سامي يجرُّ قدميه وهو يهبط الدرج خائرًا، تسرَّب من أمامي وأنا في ذهولي من هذا التغيير المفاجئ، واختفى صوتي فلم أستطع أن أناديه لأستفسر عن السبب.

ما أثقلَ الأيامَ والليالي حينما تحيط الإنسان باليأس والغموض، وسؤال ليس له جواب، كل شيء حولي تلوَّن بلون الغموض وطعم الألم، ساعات طوال تمرُّ عليَّ وأنا أحملق في يديَّ ذاهلة، ذات اليد التي تغيَّر وتلوَّن عندما حملق فيها، فلا أجد شيئًا غريبًا يريحني ويخرجني من حيرتي، فتزداد حيرتي وعذابي.

ولو اقتصر عذاب الإنسان على نفسه لهان الأمر، ولكن للوالدين مفاهيم أخرى وعيون ترى مهما حاولت التجمُّل أمامهما بعدم المبالاة.

لجأت لعمته أستفسر منها، فلم أجد عندها جوابًا شافيًا، ولاحظت أنها تخفي شيئًا عندما قالت:

-الزواج قسمة ونصيب.. فانطفأ آخر أمل رجوته.. ومرَّ عام وزيادة، وأنا على حالي أرفض العرسان وأتساءل بيني وبين نفسي أين هو؟ وصارت حياتي روتينية مملَّة بين الذهاب إلى العمل والعودة منه.

ووجدته أمامي عند باب الشقة المقابلة، يحمل طفلا رضيعا وبجواره ما أظنها زوجته ووالدة الطفل. رآني فأسرع يضرب الجرس

وتفتح عمته.. استقبلتهما بترحاب وأنا متسمِّرة مكاني ذاهلة مما أرى.. فقالت عمته:

-أهلا يا ليلى تفضّلي.. هذا سامي ابن أخي وزوجته وابنه.. زوجته أيضا ابنة أخي الثاني.. تفضّلي تعرَّفي عليهما.

كان سامي قد أسرع بالدخول والاختفاء بابنه بينما زوجته واقفة تستمع لكلام عمتها، وهي تقدمني لها:

- وهذه ليلى جارتنا من زمن بعيد.. نعم الجيرة والأهل.

مدّت زوجته يدها تسلِّم علي وتدعوني لدخول الشقة فساقتني قدماي تلبية لدعوتها.. نادت عمته:

- تعال يا سامي سلِّم على ليلى جارتنا.

خرج سامي من غرفته مرتبكًا محاولاً تصنُّع ابتسامة قائلا:

- أهلا أستاذة ليلى.. تفضّلي لماذا أنت واقفة؟!!

تسمّرت عيناي على يده التي يحيط بأحد أصابعها خاتم زواجه، وبحركة لا إرادية فركت أصابعي وأدرت الخاتم فبرقت عيناه وفغر فاه.

**

(القاهرة في ١٩٨٧)

المؤلفة

نادية كيلاني:

ـ عضو اتحاد كتاب مصر/ عضو رابطة الأدب الإسلامي/ عضو نقابة الصحفيين /عضو مجلس إدارة نادي القصة / عضو مجلس إدارة نادي الأدب بثقافة الجيزة/ عضو جمعية الأدباء.

ـ معتمدة مؤلفة دراما ومتحدثة بالإذاعة المصرية.

المؤهل: ـ ليسانس لغة عربية وعلوم إسلامية (كلية دار العلوم)

العمل: ـ صحفية بدار الهلال/ وموقع المشهد الإلكتروني.

الإصدارات: القصة:

(حب لم يعرفه البشر)- رواية – المؤلفة ١٩٨٧

(اتهام) ٣٣ قصة قصيرة – الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧

(إحراج) ٢٢ قصة قصيرة- سلسلة الكتاب الفضي بنادي القصة ٢٠٠١

(إلكترومانسي) ١٥ قصة من وحي النت.. ٢٠١٥

(عيني عينك) هذا الاصدار- ٢٠١٦

(إبليس في إجازة ـ مسرحية إلكترونية) دار الصداقة للثقافة والنشر. ٢٠١٠

http://www.alsdaqa.com/vb/showthread.php?t=36709

تحت الطبع:

(عمتي معزوفة أبدية) مجموعة قصص قصيرة.

الشعر:

(بين الغيوم والقمر) – ديوان شعر – مكتبة الآداب– ٢٠١١

تحت الطبع:

(طفولة المطر) ديوان

(محمد وصاحباه) سيرة الرسول وصاحبيه شعرا ونثرا.

كتب أخرى:

(الأبراج) (بحث فى علم الفلك) مركز الراية للنشر والإعلام ١٩٩٦

(أيام مع يحيى حقي) – سيرة ذاتية غيرية– المؤلفة ٢٠٠٥

(الحجاب رؤية إسلامية دائمة)؛ ردًّا على كتاب (الحجاب رؤية عصرية)، دار إسلام شمس للنشر. ٢٠٠٨

(احترم نفسك) دار الصفا للنشر والتوزيع ٢٠١٥

وللأطفال:

(الأستاذ فوازيرو: اسمك معلومة وفزورة)– الهيئة العامة للكتاب من بداية من ٢٠٠٤ ومستمرة حتى الآن.. صدر (تسعة وثلاثون اسمًا في ثلاثة عشر جزءًا) وتعد موسوعة في معاني الأسماء في اللغة والعلم والتاريخ والصناعة والتجارة وتداعي معانيها.

(مغامرات ندى:٩ قصص)-سلسلة الأولاد والبنات- دار الهلال. ٢٠١٣

(جولة مع عروس النيل: عشرة أجزاء) سلسلة الأولاد والبنات- دار الهلال ٢٠١٥

وتحت الطبع:

(أمم أمثالكم) مجموعة على لسان الحيوان والطير .

(ولحم طير مما يشتهون) وقصص أخرى

(سلسلة فضائل الشهور العربية: ١٢ جزءً)

وعدد من أغاني الأطفال

دراسات إسلامية:

(عجائب سورة البقرة)ـ (عجائب سورة النور)ـ (عجائب سورة العنكبوت)

(الإمام مالك بن أنس)ـ (الإمام أبو حنيفة النعمان)ـ (الإمام أحمد بن حنبل)

(الإيتيكيت في الإسلام) ـ (حقائق مذهلة في جسم الإنسان) ـ (موسوعة الدعاء المستجاب)

تصدر عن مركز الراية للنشر والإعلام.

الإذاعة:

سهرات درامية بعنوان:

(أمي ولكن) – البرنامج العام.

(السلطان والرعية) –صوت العرب.

(ابنة المليونير) البرنامج العام.

(عاشت الأسامي) برنامج رمضاني ثلاثون حلقة– البرنامج العام.

دراسات في كتب:

ترجمة معجم البابطين للشعراء –الطبعة الثالثة ٢٠١٣

سيرة أدبية على أريج صدانا– شبكة صدانا الثقافية– الجزء الأول.

كتابات نقدية

(القصة امرأة– ٢٠١٠) "محمد محمود عبد الرازق" الهيئة العامة لقصور الثقافة.

(هموم القصة القصيرة–٢٠٠٨) "دكتور جمال عبد الناصر" كتابات الاتحاد.

(القصة القصيرة المعاصرة– ٢٠٠١) "دكتور صابر عبد الدايم" دراسة لقصة إحراج.

(اتجاهات جديدة في القصة المعاصرة) أبحاث مؤتمر القصة– اتحاد الكتاب يناير– ٢٠٠٨

(هن في قلب مصر) "فاطمة الزهراء فلا" مكتبة جزيرة الورد. ملامح بعض الشخصيات المعتبرة.

(هؤلاء كتبوا للأطفال) إعداد "محمود قاسم" المجلس الأعلى للثقافة– المركز القومي لثقافة الطفل–١٩٩٩)

القائمة الببليوجرافية المعيارية للكتب المختـــارة لمكتبـــات المـــدارس ديسمبر – ٢٠٠٥ وبها ثلاثة اصدارات – إحراج- أيـــام مـــع يحيـــى حقي-الأستاذ فوازيرو)

*فضلا عن عدد من الجوائز والتكريمات وشهادات التقدير من أمـــاكن مختلفة.

nadiakelany@windowslive.com

http://nadiakelany2012.blogspot.com

الفهرس

الإهداء ٣

المقدمة..... ٤

زهرة الحب لمن ٥

غداء فاخر جدا..... ١٣

المتشرد..... ٢١

عيني عينك..... ٢٥

الجمل والجمال..... ٣٣

الشاطر قنديل..... ٣٩

امرأة مثالية..... ٤٧

إنهم يحيرون الأطفال..... ٥٥

ألقاب وأوسمة..... ٥٩

صدفة وأنت لؤلؤة..... ٦٥

علبة من القطيفة..... ٦٧

عروس جنين..... ٧١

نصر أكتوبر في لوحات..... ٧٩

هكذا يديرونها..... ٨٧

مناورة ٩١

ليته لم يقل لي.....٩٥
عصفور العسل.....١٠١
الخاتم ١٠٧
المؤلفة.....١١٣